جامعة أكسفورد فى العصور الوسطى

د. زينب عبد المجيد عبد القوى*

مـــصـــر

فوق المراعى المائية Water-meadows على ضفاف نهر التيمز Thames ونهر أيـــزيس Isis عـــند نقطـــة الالتقاء بنهر شيرويل Cherwell تقع مدينة أكسفورد،[1] على بعد خمســـين ميلاً شمال غرب لندن بحذاء المنطقة العليا اليابسة لشبه جزيرة منخفضة بين مجرى نهـــر شيرويل وأعلى التيمز من ناحية الشرق والغرب ، بينما من جهة الجنوب يؤدى انحدار إلى ممر من المراعى الرخوة التى تؤدى إلى جسر المدينة . وهى المنطقة التى يضيق عندها نهـــر التـــيمز قبل أن يتسع مجراه ويصبح عميقاً بعد اتصاله برافده شيرويل ، وهذه المنطقة كانـــت فى الأصل عبارة عن مخاضة كان رعاه الثيران من الأنجلوسكسون الغربيين يعبرون الـــنهر بقطعانهم عندها ، متجهين إلى الحقول الرخوة الواقعة على حافة المنحدر ، الذى يشكل لســـاناً أرضـــياً بين نهر التيمز ورافده شيرويل . نشأت مدينة أكسفورد فوق هذا المكان التى يعـــنى اســـمها "مخاضة الثيران" عند هذه النقطة التى تعتبر ملتقى ثلاثة طرق أحدها قادم من الشـــمال ، والآخـــر مـــن الشرق ، والثالث من الغرب . وعلى الرغم من أن نهر التيمز كان الطـــريق المائى الذى تتصل لندن من خلاله بقلب انجلترا ، فلم ينشأ على مجراه سوى مدينة أكسفورد.[2]

وفى ضوء الغموض الذى يحيط بالتاريخ الباكر لنشأة مدينة أكسفورد التى لم يرد لها ذكـــر في المصادر التاريخية المعاصرة قبل عام ٩١٢م . حيث وردت أول إشارة بأنه فى هذا العـــام قـــام الملـــك الأنجلوسكسونى إدوارد الكبير (٨٩٩-٩٢٤م) أثناء الصراع بين الممالك الانجلوسكسونية "بالاستيلاء على لندن وأكسفورد ، وجميع الأراضى التى أزعنت له بالطاعة

---

* مدرس تاريخ العصور الوسطى ، كلية الآداب ، جامعة الزقازيق.

[1] تظهر مدينة أكسفورد فى الوثائق الملكية والمصادر المعاصرة لتاريخ انجلترا فى العصور الوسطى باسم :
Oxoniensius, Oxoniensis, Oxoniam, Oxoniae, Oxineford; Oxeneforda,
ويدل أصل الاسم Oxen فى اللغة الانجليزية الحديثة على معنى الثيران ، وفى ضوء الطبيعة الجغرافية للمكان الذى شهد ميلاد المدينة في الحقبة الانجلوسكسونية على أن هذا الاسم يعنى "مخاضة الثيران" انظر :
Historical letters of the Reign of Henry III, ed. by Shirley in (Rolles Series) London, 1866, Vol. II 1236-1273, pp. 251, 301; Roberti Grosseteste, Epistolae, ed. By Luard in (Rolles Series) London, 1861, p. 346; Stubbs, Select Charters and Other Illustrations of English : From the Earliest times to the Reign of Edward the First (Oxford, Ninth Edition, 1913) pp. 106, 199; The Chronicles of the Reigns of Edward I and Edward II, ed. By Stubbs in (Rolles Series) London, 1965, vol. I, pp. 35, 76, 332.

[2] Mallet, History of the University of Oxford, London, 1968, vol. I, pp. 1, 2; Green, "Oxford in the Middle Ages", (ed.) in English Historians Selected Passages, Oxford, 1957, pp. 141-144; A Short History of the English People, London, 1960, Vol. I, p. 124;
ابراهيم الجزيرى ، مظاهر الحضارة فى انجلترا الانجلوسكسونية خلال عصر الملك الفريد العظيم ٨٧١-٨٩٩م . رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة طنطا ، كلية الآداب ، قسم التاريخ ، عام ٢٠٠١ ، ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، حاشية رقم (٨٠) .

والولاء"[1] . وقبل ذلك التاريخ ووفقاً لتخمين المؤرخ باركر Parker كانت المدينة مجرد مكان حصين في قلعة هيل Castle Hill الأثر الوحيد الباقى من أكسفورد فى القرن العاشر[2] .

وقلما نسمع عن أكسفورد حتى القرن الحادى عشر . بيد أنه بدءً من هذا القرن غدت المدينة هى المكان المفضل لانعقاد مجلس الواتانجيموت Witenagemot ، أى مجلس الرجال الحكماء، أثناء حقبة الملكية الانجلوسكسونية (٤٥٠-١٠٦٦م) ، ومقراً لإقامة عدد من الملوك الانجلوسكسون مثل ايدموند الحديدى Edmund Ironside الذى لم يحكم سوى بضعة شهور من عام ١٠١٦م ، وكانيوت Canute (١٠١٦-١٠٣٥م) . وهارولد عام ١٠٦٦م . وغداة الغزو النورمانى لانجلترا عام ١٠٦٦م . ومن منطلق رغبة وليم الفاتح فى إحكام قبضته القوية على انجلترا . قام بتعيين البارون النورمانى روبرت دى أولى Robert d'ailly رئيساً لشركة أكسفورد ، حيث قام بإنشاء القلعة الشهيرة للمدينة عام ١٠٧١م . والتى صممت للأغراض الحربية والكنسية على السواء . حيث قام هذا البارون مع بارون نورمانى آخر يدعى روجرايفرى Roger d'Ivri ببناء كنيسة تعليمية Collegiate Church تكريساً للقديس جورج داخل القلعة عام ١٠٧٤م . ولم يلبث ابن أخيه أن أسس ديراً مهيباً فى أوسنى Oseney بين جزر نهر التيمز عام ١١٢٩م.[3]

فى ضوء ذلك نقول أن المدينة لم تحظ على المستوى الكنسى بأية هيبة تاريخية مثل كاتدرائيتى كانتربرى ويورك . ولم ترق إلى المرتبة الأسقفية التى من الممكن أن تضفى عليها هالة من القداسة والشهرة . وليس بها كنيسة كاتدرائية أو ديراً لأحد كبار القديسين ، باستثناء دير راهبات القديسة فريدازوايد St. Frideswide الذى تم تأسيسه عام ٧٢١م.[4] علاوة على عدد من الكنائس الأبروشية مثل كنيسة القديس مارتن التى تعد من أوائل الكنائس الأبروشية فى أكسفورد ؛ وكنيستها بالطبع هى كنيسة المدينة، وكنيسة القديسة مالدريد St. Mildred التى أقيمت تكريساً لقديسة من مملكة مرشيا Mercia أثناء الحقبة

---

١ Roger Wendover, Flores Historiarum, ed. H.G.Hewlett, in Rolles Series, London, 1886-89, vol. I, p. 237; Rashdall, The Universities of Europe in the Middle Ages, Oxford, 1936, Vol. III, pp. 6, 7.

٢ Rashdall, op. cit., p. 7.

٣ Lyte, A History of the University of Oxford: From the Earliest Times to the Year 1530, London, 1886, p. 3; Mallet, op. cit., p. 17; Rashdall, op. cit., p. 7.

٤ يذكر المؤرخين رشدال ومالليت اعتماد على حوليات دير القديسة فريدزوايد أسطورة فحواها أن فريدزوايد أبنة الملك ديدانيوس Didanus الذى حكم عام ٧٢٦م قد لاذت بالفرار من العاشق الذى طاردها ، يقال أنه ملك Leicesler الشرير ، حتى حصن فى غابة بينسى Binsey . حيث سالت منها الدماء . واستجابة لصلواتها . تفجر ينبوع من الماء فىهذا المكان ، وأصيب هذا الملك الجائر بالعمى . لتشهد المعجزات على مكانتها السماوية ، وندماً على خطيئة تم تأسيس هذا الدير فوق هذه البقعة . وللهدف من رواية هذه الأسطورة كما يذكر رشدال فى حديثه عن الوجود التاريخى لمدينة أكسفورد أن تأسيس هذا الدير يكون بمثابة إشارة باكرة بأن المدينة وجدت بعد ذلك ، انظر :
Rashdall , op.cit., Vol. III, p. 6; Mallet, op. cit., vol. I, p. 17.

الانجلوسكســونية، وكنيسة القديس بطرس فى الشرق ، وكنيسة القديسة مريم المجدلية خارج أســوار المدينة؛ ودير كنيسة القديس أوغسطين؛ وكنيسة القديس ميخائيل عند البوابة الشمالية للمديــنة، ودير أبنجدون الذى امتدت ممتلكاته إلى هينكسى Hinksey ، ويتهام Wytham ، وغابة بيجلى Bagley[1] . وكان رئيس هذا الدير ، الذى يعتبر مؤسسة كبيرة وثرية ، يفرض علــى أصــحاب القوارب فى أكسفورد ضريبة مرور تقدر بحوالى مائة من سمك الرنجة عن كل قارب يمر فى أيام الصوم الكبير[2] .

علــى أية حال ، ففى داخل أروقة المدارس الملحقة بتلك المؤسسات الدينية يمكن أن نمــيز المراكز الأصلية للتعليم[3] . ففى أيام القديس بندكت النورسى نفسه St. Benedict of Nursia (ت. ســنة ٥٤٣م) صــور العــالم الأرســتقراطى الــرومانى كاســيودوروس Cassiodorus الأديــرة باعتــبارها أكثر الأماكن ملائمة للتعليم ، وأنها المراكز الأدبية فى المجتمع الجديد[4] ، وقد تمكنت هذه المؤسسات من جذب العديد من الدارسين الفقراء من جميع أنحــاء انجلترا ، إن المدارس القديمة ليس فى انجلترا فقط ، بل فى جميع أنحاء أوروبا كانت ملحقــة بالأديرة أو الكاتدرائيات ، ونظراً لعدم وجود دليل مضاد فإن التناظر يرغمنا على حد تعبير المؤرخ الأنجليزى بودريك Brodrick على اعتبار الكنيسة الأم المرضعة للجامعة[5] .

ففــى الوقت الذى قدر لجامعات شمال أوروبا أن تنمو فى صلب المدارس المرتبطة بالمؤسســات الدينــية ســواء أكانت كاتدرائية أو ديرية أو كنسية فى ضوء ما اصطلح على تســميته بالمدرسة العامة Studium Generale . والتى تطورت فيما بعد إلى جامعة والتى تمــثل المرحلة الأولى من تاريخ نشأة الجامعات[6] . مع الأخذ فى الاعتبار أن لفظ أو مصطلح الجامعــة أو الجماعــة Universilas لم يستخدم فى هذه الفترة الباكرة على الاطلاق . وإنما التعبــير الــذى شاع استخدامه فى نهاية القرن الثانى عشر وبداية القرن الثالث عشر ، وعلى غــرار نقابــات الــتجار والصــناع ومجــالس المــدن هو جماعة الدارسين Universitas

---

[1] Mallet, op. cit., vol. I, p. 18, Lyte, p. 2.

[2] Mallet, op. cit., p. 17.

[3] Brodrick, A History of the University of Oxford, London, 1894, p. 2 ; Green, op. cit.,p.125.

[4] كالــتور ، الــتاريخ الوســيط (ت. قاسم عبده قاسم ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، الطبعة الخامسة ، ١٩٩٧ ، جـــ١ ، ص ٢٢٣ .

[5] Brodrick, op. cit., p. 2; Rashdall, op. cit., p. 9.

[6] Mallet, op. cit., p. 3; Lyte, p. 4 ; Brodrick, op. cit, p. 2 ; Willson, A History of England (2nd. London, 1972) p. 121;
جوزيــف نســيم يوســف ، نشأة الجامعات فى العصور الوسطى ، الاسكندرية ١٩٨٤ ، ص ١٢١ ، ١٢٣ ، ياسر عبد المعــبود ، جامعة باريس ودورها فى النهضة الفكرية بأوروبا فى العصر الوسيط ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، قسم التاريخ ، ٢٠٠٣م ، ص ٢٧ .

Scholarium ، وجماعـــة الأســـاتذة والدارســـين Universitas Magistrorium et Scholarium.[1]

وفـــى ضـــوء اســـتقراء الواقـــع التاريخى للحياة الأكاديمية فى القرنين الثانى عشر والثالـــث عشـــر والأصـــل التاريخى لكلمة جامعة ، التى كانت تستخدم آنذاك بمعنى الجماعة للدلالة على جماعة الدارسين سواء كانوا أساتذة أو طلاب؛ وليس بمعنى المكان الذى يقيم فيه هـــؤلاء أو حـــتى المـــدارس التى تجمعهم؛ أى ليس ثمة ضرورة أن تكون الجامعة مرتبطة بـــالمدارس . وفـــى هذا الصدد يذكر المؤرخ راشدال Rashdall أنه ليس من الضرورى فى الأســـاس الـــربط بين المؤسسة التى يشار إليها بكلمة الجماعة ، وتلك التى يشار إليها بمعنى المدرســـة العامـــة لأن جماعات الأساتذة والدارسين قد وجدت بالفعل قبل أن يخرج مصطلح المدرســـة العامـــة إلـــى حيز الاستخدام[2] . وتوجد بالفعل أمثلة قليلة تدل على وجود هذه مثل الجماعـــات أو الهيئات فى المدارس التى لم تصبح مدرسة عامة Studia generalia . وعلى أيـــة حـــال فقـــد كانـــت الجامعـــة فى الأساس عبارة عن نقابة تعليمية سواء من الأساتذة أو الدارســـين، ومـــثل هـــذه النقابات خرجت إلى حيز الوجود مثل النقابات الأخرى ، بدون أى تفويـــض واضح من الملك ، البابا ، الأمير ، أو رجل الدين . فقد جاء ظهورها عفوياً وتلقائياً مثل الموج الهادر الذى اكتسح مدن أوروبا فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر.[3]

وفـــى ضوء ذلك كان مصطلح الجامعة ينطبق بشكل خاص على جموع الأشخاص الذيـــن يـــرتادون مراكز الدراسة الكبرى، ويستخدم بالفعل كمرادف لكلمة مدرسة Studium للدلالة على المؤسسة نفسها.[4]

وبـــالفعل فـــإن كلمـــة جامعـــة فى الفكر الانجليزى فى العصور الوسطى تدل على مؤسســـة تعليمـــية بمعـــنى المدرسة العامة ، ليس للدلالة على المكان الذى تدرس فيه جميع المواد، ولكن المكان الذى يتلاقى فيه الدارسون من جميع الجهات . وهذا الاستخدام للفظ يبدو أنـــه انجليزى الأصل ، لأن جامعة أكسفورد قد ذكرت بالفعل بمعنى المدرسة أو المدارس فى كـــل المراســـيم الملكية التى صدرت فى أعوام ١٢٣٨ ، ١٢٤٠ ، ١٢٥٣م . بينما كان المقر الأكـــبر للتعليم على ضفاف نهر السين حتى عام ١٢٦٣م يسمى فى المصادر المعاصرة باسم جماعة الأساتذة والدارسين[5] .

---

١ Knowles, The Evolution of Medieval Thought, London, 1970, p. 153; Rashdall, op. cit., vol. I, pp. 5, 6; Lyte, op. cit., p. 4, Willson, op. cit., p. 121.

٢ Lyte, op. cit., p. 5; Rashdall, op. cit., vol. I, pp. 5, 15.

٣ Lyte, op. cit., p. I; Rashdall, op. cit., p. 15.

٤ Lyte, op. cit., p. 4.

٥ Lyte, op. cit., p. 4; Rashdall, op. cit., vol. I, p. 15.

سعيد عاشور ، أوروبا العصور الوسطى ، جـ٢ ، النظم والحضارة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٨م ، ص ١٧٥ .

وبالـــرغم من وجود شبه إجماع بين المؤرخين الإنجليز المحدثين على ارتباط أصل مـــدارس أكســـفورد بالكـــنائس الديرية ، فإن المؤرخ الإنجليزى رشدال Rashdall فى ثنايا حديثة عن الأصل التاريخى لجامعة أكسفورد يؤكد بأنه جاء متفرداً ، بمعنى أنها انفردت عن ســـائر جامعـــات شـــمال أوروبا بأنها لم ترتبط في تطورها بأية كنيسة كاتدرائية أو ديرية ، لاسيما وأن المدينة لم يوجد بها كنيسة كاتدرائية كما سبق الإشارة ، ولكن يمكن تبرير وجهة نظـــر هـــؤلاء المؤرخين الإنجليز من وجهة نظر المؤرخ رشدال بأن الأساتذة والدارسين فى مـــدارس أكسفورد كانوا تحت إشراف عضو ينتمى إلى المؤسسة الديرية ، على غرار أساتذة بـــاريس الذيـــن كـــانوا تحت سلطة ما اصطلح على تسميته باسم مستشار كاتدرائية نوتردام Chancellor of Notre Dame وأن المـــدارس الـــتى تأسســـت فـــى البداية قد وجدت فى المـــناطق المتاخمة لدير القديسة مارى ، وهى كنيسة أبروشية استخدمت بواسطة الجامعة من أجل اجتماعاتها، مما يعنى أن هذه المدارس لم توجد حتى فى المناطق المجاورة لدير القديسة فـــريدزوايد، والـــذى تأسســـت المدينة فى ظله ، وبمجرد أن استكملت الجامعة تكوينها كان الأســـاتذة والطـــلاب تحت سلطة مستشار Cancellarius or Chancellor ، ينتخب رسمياً بواســـطة الأساتذة ، بيد أنه يستمد سلطته وصلاحيته من أسقف لنكولن Lincolniensis or Lincoln الذى تتبعه المدينة كنسياً.[1]

وفى ضوء الاستقراء التاريخى للتاريخ الباكر لجامعة أكسفورد فإن الباحث يتفق مع وجهـــة نظـــر المـــؤرخ رشدال ، وأؤكد على أن اصطلاح المدرسة العامة ليس المقصود به اعتبار أن جامعة أكسفورد كانت فى الأصل مدرسة ديرية ، ذلك أن المدارس الديرية الكثيرة فـــى أكســـفورد ، والتى سبق الإشارة إليها فى مقدمة هذه الدراسة ، شأن قريناتها فى شمال غرب أوروبا ، والتى اقتصرت الدراسة فيها على ما يسمى الفنون السبعة الحرة بمجموعتيها الثلاثـــية Trivium وتشـــمل الـــنحو والبلاغة والمنطق ، والرباعية Quadrivium وتشمل الحساب والهندسة والفلك والموسيقى . وكان التعليم داخل أروقة هذه المدارس الديرية منصباً على الإنجيل واللاهوت ، ولا يستهدف غرضاً إلا إعداد النشئ ليصبحوا من رجال الدين.[2]

وفى محاولة لفض الاشتباك بصدد اعتبار جامعة أكسفورد فى الأصل مدرسة ديرية، إنمـــا يـــنطوى من وجهة نظر الباحث فى ضوء هذه الدراسة على خطأ فادح ، لأن ارتباطها بالأديـــرة إنمـــا جـــاء من خلال أن الجامعة فى تاريخها الباكر لم يكن لها أبنية خاصة بها ، فاســـتخدمت فى إلقاء المحاضرات الغرف والقاعات الملحقة بالكنائس والأديرة ، والتى كانت خاضعة بدورها للإشراف الكنسى لأسقف لنكولن . ومن ثم فإن القول بأن جامعة أكسفورد قد

---

١ Rashdall, op. cit., vol. III, pp. 9-11.

٢ Mallet, op. cit., pp. 5-6.

جوزيف نسيم يوسف ، المرجع السابق ، ص ١٢٣ ، كانتور ، المرجع السابق ، جـــ٢ ، ص ٣٨٧ .

خرجـــت مـــن عـــباءة المدرسة العامة الملحقة بالأديرة أو الكنيسة ، ينبغى تفسيره وفهمه فى ضوء هذه الخلف.

ونتســـاءل هنا لماذا اتخذت أكسفورد من بين جميع المدن والأماكن فى المملكة لتقام بها أول وأعرق جامعة قومية ؟

لا مـــراء أن مـــدارس أكســـفورد الـــباكرة ، والتى تتوارى خلف ضباب كثيف من الغمـــوض ، إنمـــا تديـــن بشهرتها إلى الموقع الاستراتيجى للمدينة على ضفاف نهر التيمز ، وعلـــى الحدود بين مقاطعتى وسكس Wessex ومرشيا Mercia ، وبفضل هذا الموقع غدت أكسفورد ، أثناء فترة الصراع بين الممالك الانجلوسكسونية ، مدينة رئيسية يتبارى للاستيلاء علـــيها ملـــوك مقاطعـــتى وسكس ومرشيا ، اللتين كانتا أكبر مقاطعات الشطر الجنوبى من المملكـــة، حيث النصف الأكثر أهمية وحضارة فى المملكة[1]؛ كما يمكن الوصول إليها بسهولة مـــن لندن . وبالتالى يكون موقعها ملائماً كمدينة جنوبية للدارسين القادمين من أقصى الشمال والغـــرب ، إن الأهمية الاستراتيجية الناتجة عن هذا الموقع هى التى أدت فى عهد وليم الفاتح إلـــى بـــناء بـــرج القلعة ، فى الغرب من المدينة ، والتى تعد واحدة من أفخم وأروع القلاع الانجلـــيزية؛ عـــلاوة على إقامة الأرل داخل قلعتها، والزيارات المتكررة للملوك الانجليز فى القرن الثانى عشر ، فقد قام هنرى الأول (١١٠٠-١١٣٥م) آخر ملوك الحقبة النورمانية ببناء قصـــر بالقـــرب مـــن ضفة نهر التيمز عند بيمونت Beaumont ، الأمر الذى يعكس إيثار السلطة الملكية لهذه المدينة، التى تبوأت مكانتها كواحدة من المراكز الرئيسية للحياة السياسية فـــى جـــنوب انجلـــترا، حيث أمست المكان الملائم لاجتماعات المجلس الكبير الذى اصطلح المؤرخـــون علـــى تســـميته بالبرلمان، وأيضاً المجامع الكنسية ، وإضافة لهذا الثقل السياسى للمديـــنة ، فإن الزيادة المطردة فى الأهمية التجارية للمدينة ، وانفرادها بوجود تجمع لعدد من أكثر اليهود الانجليز ثراء فى قلب المدينة، مما يشير إلى ازدهار تجارتها[2] . وفى هذا الصدد كـــان بـــرجوازية المدينة فخورين لتمتعهم بحرية مماثلة لتلك التى حظيت بها مدينة لندن[3] . وأخـــيراً تعتـــبر أكسفورد أفضل مدينة تعطى مثالاً للتغير الذى طرأ على أرضها على أيدى الـــنورمان ، حيـــث شهدت المدينة طفرة هائلة فى العمل الصناعى والتجارى ، وعالم المال والثروة .

---

[1] Rashdall, op. cit., p. 7; Mallet, op. cit., p. 15; Green, op. cit., p. 124.

[2] Rashdall, op. cit., p. 8; Mallet, op. cit., p. 16; Green, op. cit., p. 124-125.

[3] يقصد بذلك العهد أو الامتياز الذى ظفرت به أكسفورد فى عهد الملك هنرى الثانى (١١٥٤-١١٨٩م) . والذى تضمن منح مواطنى أكسفورد حرية التجارة بجميع اعفاءتها والرسوم المألوفة على الحقول والغابات والمراعى والممتلكات الأخرى . واعفاءهم من المكوس الجمركية فى جميع أنحاء انجلترا ونورماندى ، فى البر والبحر ، وعدم مقاضاة أحد ممن يقاضيهم خارج مدينة أكسفورد ، لمزيد من التفاصيل عن هذا العهد انظر :
Charter of Henry II to Oxford A.D., 1155-1162, Stubbs (ed.) op. cit., pp. 198-199.

وفى ضوء هذه المقومات فإن العقل لا يقبل فكرة أن تقام أولى الجامعات الانجليزية وأكثرها أهمية فى أى مكان آخر غير مدينة أكسفورد التى يحق لها أن تشعر بالرضا والزهو لهـذا المركز الأكاديمى الذى جاء مطابقاً وموقعها الملائم[1] ، الذى هيأ لها أن تكون واحدة من أكـثر المـدن ملائمـة لإيواء وإطعام الآلاف من الغرباء واحتضان تلك الجموع الهائلة من الدارسين.[2]

إن الجامعـات الباكرة فى أوروبا لم تكن تنتمى إلى مؤسسين أشخاص ، ولا تواريخ مؤكدة لتأسيسها ، وحيث يقيم الأساتذة المشهورون يكون الارتحال إليهم من المناطق الموحشة والنائـية وسـط المخاطـر اليومـية للحياة فى العصور الوسطى. وتهفوا إليهم عقول وأفئدة الدارسين الذين يرتادون أماكنهم بحماس هائل وأعداد كبيرة ، وبالتالى ظهور ما اصطلح على تسميته "المدرسة العامة" حيث يجتمع الدارسون من جميع الجهات.[3]

ومـن المؤكد وجود مدارس فى أكسفورد أثناء حكم الملك هنرى الأول ، إذ يستدل مـن الرسائل الخمسة Epistolae لثيوبالدستامبس Theobaldus Stampensis[4] ، وتحديداً رسالتيه الموجهتين إلى كل من فاريتوس Pharitus رئيس دير أبنجدون Habendonensis or Abinagdon فـى انجلـترا (١١٠١-١١١٧م)، وروسللينوس Roscellinus أحد رجال الديـن فى انجلترا، الذى اضطر للفرار منها تحت وطأة معارضة من رجال اللاهوت ، يذكر

---

١ Rashdall, op. cit., p. 9.

٢ Rashdall, op. cit., p. 8.

٣ Mallet, op. cit., p. 2.

٤ أولى هذه الرسائل المنسوبة إلى ثيوبالد كانت موجهة إلى أسقف لنكولن ، وتتضمن تفنيد لاهوتى لاذع لهؤلاء الذين يشكون فـى الكتب المقدسة . والثانية إلى فاريتيوس رئيس دير أبنجدون فى انجلترا بعنوان "الأطفال غير المعمدين لا يمكن أن يـنالوا السعادة الأبدية" إذ يقول فيها "... الأطفال غير المعمدين هم بلا شك من الهالكين ، أما المعمدون فإذا انتقلوا على الفـور ، فهم بالتأكيد من الخالصين . فإذا ما أراد أعداء الحقيقة أن يبحوا ضد هذا الرأى للكاثوليكى ، فأنا على استعداد لانتقادهم كتابة وشفهياً كخطاة آثمين وكلاب لئيمة .." أما الرسالة الثانية التى يذكر نفسه فيها كأستاذ فى جاين بفرنسا فقد كتـبها إلى مرجريت ملكة اسكتلندا التى توفيت عام ١٠٩٣م . ممجداً فيها سخائها إذ يقول : ".. إذا ما بدرت مقصراً فى تسجيل مديحى لكى ، فلا ترجعين ذلك قط إلى جفائى وكسلى ، لأنه لو تحولت جميع أعضائى إلى ألسنة ، ما استطاعت إزاء كل ما لديك من أمور تستحق الإشادة أن توفيها حقها من المديح .." ويختتم رسالته بأن يكون له شرف الانضمام إلى كهنـتها ، وأن يكـون لها بمثابة ملاك المشورة لكى تتفقه الأمور القويمة" والرسالة الرابعة إلى صديقه فيليب Philipp معزياً إياه لما يلقاه من إهانات قائلاً : ".. قال أحد الحكماء أفضل أن يعتبرنى الناس آثماً لذنب يسير أقترفه علناً ، على أن يعتبرونى باراً ، مع ذنب جسيم أقترفه أمام الله .." وفى هذه الرسالة يقدم نفسه باعتباره استاذ فى جاين . أما الرسالة الخامسـة والأخـيرة عبارة عن تفنيد لادعاءات روسليوس ويلومه بشدة لقوله أن أبناء الكهنة الذين جاءوا نتيجة خطيئة الجسـد غـير صـالحين للكهنوت . إذ يقول فى رسالته : ".. إذا كنا مولودين من أب واحد ، ومن أحشاء كنيسة مقدسة واحدة" ، " لا مكان لكيل الاتهامات ، ولا داعى لتكبر هذا على ذاك .. إن الرب مخلصنا ، إنما تجسد فى صورة البشر وخدم الحر والعبد ، ليقدم المكافأة السماوية بتساوى المجد والكرامة لجميع الذين يؤمنون به .." ، لمزيد من التفاصيل انظر النص الكامل لهذه الرسائل الخمسة فى :
Theobaldus Stampensis, Epistolae, in Patrologia Latina, (ed.) Migne, Paris, 1854, Tome, CLXIII, pp. 759-770.

أنه كان استاذ فى أكسفورد "Magister Oxenefordiae"؛ فى حين يذكر نفسه فى رسالتين آخرتيـــن بأنه كان أستاذ فى جاين Gadumensis or Gaen[1] . ويستدل من مضمون رسائله بأنه رجل لاهوت شهير وليس راهباً ، وأنه فرنسى أو نورمانى ، وقام بالتدريس فى أكسفورد فى فترة ما قبل عام ١١١٧م ، تحت رعاية قساوسة دير القديسة فريدزاويد ، لعدد يتراوح بين ســـتين أو مائة دارس تقريباً ، ويعتبر بالفعل أول الأساتذة الذين وردت أسمائهم فى السجلات الباكرة لمدارس أكسفورد.[2]

ولـــم تلبث مدارس أكسفورد عام ١١٣٣م أن اجتذبت عالم لاهوت شهير من أساتذة بـــاريس يدعـــى روبـــرت بوللوس أو بوللين Robert Pullus or pullen ، حيث مكث فى أكسفورد زهاء خمس سنوات محاضراً فى الكتاب المقدس؛ وجلس جون السالزبورى John of Salisbury أمامه كدارس.[3]

وبعـــد ســـنوات قلـــيلة مـــن رحيل روبرت بوللين ، جاء إلى انجلترا عالم القانون اللمـــباردى الشهير فاكاريوس Vacarius [4] . ووفقاً لرواية كل من جيرفاس راهب كاتدرائية كانـــتر بـــرى Gervasii Cantuariensis ، وروبرت تورين Roberti de Torugnion ،

---

١ Loc. cit.

٢ Rashdall, op. cit., pp. 17, 18; Mallet, op. cit., pp. 20, 20

٣ كـــان روبـــرت بوللين انجليزياً من مقاطعة استر Exter ، من نتاج المدارس الفرنسية ، ومؤلف لكتاب "ثمانية كتب فى الأحكـــام Sententiorum Libre Octs . وعرض عليه هنرى بوكليرك Henry Beauclerc أحد رجال بلاط هنرى الـــثانى ، الـــذى كان تواقاً لخدمة هذا العالم المبجل ، وظيفة الأسقف ، بيد أنه "اكتفاء بالطعام والملبس" لم يبد قبولاً لأية وظـــيفة عليا أكثر من وظيفة رئيس شماسة روشيستر Rochester ، وبعد فترة من عودته إلى باريس توجه إلى روما ، حيث تم تعيينه عام ١١٥٤ مستشاراً للبلاط البابوى ، لمزيد من التفاصيل انظر :
Lyte, op. cit., p. 10; Bordrick, op. cit., p. 5; Mallet, op. cit., p. 21; Rashdall, op. cit., p. 18.

٤ ولد فاكاريوس الذى يعنى اسمه "راعى البقر" عام ١١١٥ أو ١١٢٠م ، فى اقليم لمبارديا . درس القانون فى مدرسة بافيا Pavea الـــتى تأسست لدراسة القانون عام ١١٢٠م . ومن المؤكد أنه جاء إلى انجلترا قبل عام ١١٤٩م ببضعة سنوات تلبـــية لرغـــبة ثـــيوبالد رئـــيس أساقفة كانتربرى ، لمساندته فى تسوية نزاعه مع هنرى بلوا Henry of Blois أسقف وينشيســـتر ، الـــذى كـــان يرغب فى استرداد وظيفة ممثل البابوية فى انجلترا ، بيد أن المؤرخ ليبرمان Liebrmamn يدحض ما ذكره جيرفاس فى روايته بأن فاكاريوس جاء إلى انجلترا كمحامى للتقاضى والبت بين اثنين من رجال الكنيسة همـــا هنرى ورئيس الأساقفة حيث كان الاثنان من وجهة نظر ليبرمان بحاجة إلى سلاح القانون الكنسى فقط . الذى كان يـــدرس علـــى يد رجال الدين الانجلو نورمان قبل مجئ فاكاريوس بوقت طويل . وعاش فاكاريوس فترة من الوقت فى مدينة كانتربرى ، حيث المدارس مزدهرة ، وحيث اعتاد رجال القانون الإيطاليين أمثال فاكاريوس مساعدة الأساقفة فى مراســـالتهم للبلاط البابوى فى الدعاوى القانونية . وقد تملك الذعر الشديد الملك ستيفن الذى لم يستطع أن يتجاهل التقدم السريع فى مجال دراسة علم ينذر بتهديد الأسس الإقطاعية للملكية الانجلونورمانية ومن ثم يجب تفسير السياسة العدائية للملـــك ســـتيفن تجـــاه فاكاريوس فى ضوء الغريزة السياسية للملكية الانجليزية . وليس من منطلق الكراهية الشخصية لفاكاريوس ، لذا فقد طالبه الملك بالامتناع كلية عن إلقاء محاضراته ، كما صدر مرسوماً ملكياً يمنع الانجليز من امتلاك أية كتب عن القانون الأجنبى ، وتم إحراق عدد كبير من المخطوطات ، ولم تفلح هذه السياسة القمعية ورغم أنه لم يرتق أية وظيفة كنسية مهمة ، فقد حظى فى أخريات أيامه باحترام البابا ، ففى عام ١١٩٨ فوضه البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨ -١٢١٦م) للدعوة لحملة صليبية فى مقاطعة يورك بانجلترا ، لمزيد من التفاصيل انظر :
Liebrmann, "Magister Vacarius" in E.H.R. April, 1896, pp. 305-314.

اللذين عاصرا حياة هذا العالم القادم من جامعة بولونيا بإيطاليا، فقد قام بالتدريس فى أكسفورد معلماً للقانون المدنى ، تحت رعاية ثيوبالد Theobald رئيس أساقفة كانتربرى عام ١١٤٩م، أثناء حكم الملك ستيفن (١١٣٥-١١٤٥م)[١] . ويعتبر بدون منازع أول معلم للقانون المدنى فى انجلـترا . لـذا ليس ثمة غرابة أن يرتاده أعداد كبيرة من الدارسين فى أكسفورد ، واستجابة للدارسـين الفقـراء قام بعمل ملخص دقيق فى تسعة كتب عرف باسم "كتاب الفقراء" Liber Pauperum، عبارة عن موجز لمجموعة القانون المدنى للإمبراطور جستنيان ، احتل مكانة بـارزة فى المواد الدراسية وحظى بالشعبية بعد تصنيفه ضمن الكتب المدرسية فى أكسفورد فى نهاية القرن الثانى عشر.[٢]

ومن الجدير بالذكر أنه بدون تشجيع التاج والكنيسة على السواء ما كان من الممكن أن تحقق مدارس أكسفورد الشهرة التى حظيت بها قبل نهاية القرن الثانى عشر.[٣] لاسيما بعد أن شـهدت أروقـتها قـيام واحـد من أبرز العلماء البولونيين – فاكاريوس – بالتدريس منذ أربعينيات هذا القرن ، وأن كثيرين مما عملوا فى الجهاز الإدارى الملكى ، فى الشطر الأخير من عهد هنرى الأول تلقوا تعليمهم فى فرنسا وإيطاليا ، ويذكر فى هذا الصدد أن الملك هنرى الأول أجـر لمدارس أكسفورد مزرعة المدينة مقابل إيجار سنوى قدره ثلاثة وستون جنيهاً ، وتـتألق مدارس أكسفورد بعد إنشاء دير أوسنى Oseney عام ١١٢٩م ، وضم كنيسة القديس جورج التعليمية إلى داخل القلعة واستخدامها فى إيواء الدارسين الشبان ، مما ساهم فى زيادة عدد طلبة أكسفورد[٤] .

وفى عهد هنرى الثانى (١١٥٤-١١٨٩م) ووفقا لما تذكر المصادر المعاصرة ، فقد بـدا قصره وكأن هناك مدرسة كل يوم ، واقتداء بخطى أبيه جيوفرى بلانتجنت كونت انجو Anjou جمـع حولـه أبـرز المؤرخين ودارسى القانون ورجال الكنيسة من أشهر الرجال المتعلميـن فى عصره ، مثل جون السالزبورى ، وارتقاء أحد تلاميذ دير القديس البانس St. Albans نـيقولاس برسـكبير الكرسـى الرسـولى فى روما تحت اسم البابا أدريان الرابع

---

١ Gervasii Cantuariensis, Actus Pontificum, ed. By William Stubbs, in the Hist, Wrks of Gervase of Canterbury, vol. II (Rolles Series) 1965, pp. 384, 385; Chronica Roberti de Torigneio, ed. by Richard Howlett, in the Chronicles of the Reigns of Stephen, Henry II and Richard I, vol. IV (Rolles Series) London, 1964, pp. 158-159; Rashdall, op. cit., p. 19; Lyte, op. cit., p. 10; Mallet, op. cit., p. 21, Bordricke, op. cit., p. 4; Davis, England Under the Normans and Angevins, 1066-1270, London, 1930, pp. 191, 192; Green, op. cit., p. 124.

٢ Chronica Roberti de Torigneio, p. 159; Liebrmann, op. cit., p. 309; Davis, op. cit., p. 192, Rashdall, op. cit., p. 21; Lyte, op. cit., p. 10; Mallet, op. cit., p. 21.

٣ Bordrick, op. cit., p. 6.

٤ Loc. cit;

كانتور ، المرجع السابق ، ص ٤٣٨ .

Adrian IV (١١٥٤-١١٥٩م) . وكانـــت تلـــك هى المرة الوحيدة فى التاريخ التى أدار فيها الشئون البابوية رجلاً انجليزياً.[١]

وغدا مقر رئيس أساقفة كانتربرى بمثابة مركز أدبى وعلمى زائع الصيت ، استحق أن يُنعـــت باســـم "معســـكر الرب وبوابة السماء". وأطلق على انجلترا فى عهد هنرى الثانى "فـــردوس الدارسين" دليلاً وبرهاناً على وجود نشاط تعليمى حقيقى علاوة على ذلك فقد ساهم التواجد الدائم للملك فى أكسفورد فى زيادة أهمية المدينة.[٢]

وفـــى هـــذا التوهج العلمى وفى ثنايا النزاع بين هنرى الثانى وتوماس بيكيت رئيس أســـاقفة كاتدرائـــية كانتربرى على مدى الفترة من ١١٦٤-١١٧٢ . والذى أضطر فى أثناءه رئـــيس الأساقفة للإقامة فى أحد الأديرة التابعة لطائفة السيسترشيان فى بونتجنى Pontigny بفرنســـا . وأيضاً النزاع السياسى بين هنرى الثانى والملك الفرنسى لويس السابع . فإن تاريخ جامعـــة أكســـفورد يجـــب أن يؤرخ من عهد هنرى الثانى[٣] ، فمن بين سلسلة المراسيم التى أصدرها الملك الإنجليزى ضد توماس بيكيت وأتباعه ، المرسوم الذى تضمن فقرة تنص على "مـــن الآن فصـــاعداً لا يسمح لأى شخص بالعبور من انجلترا إلى القارة ، أو من القارة إلى انجلـــترا ، بـــدون إذن صريح من التاج ، ومن يخالف ذلك يقبض عليه ويسجن ، واستدعاء جمـــيع رجال الدين الذين يمتلكون إيرادات فى انجلترا ، من خلال حكام المقاطعات ، للعودة فـــى غضون ثلاثة أشهر ، إذا كانوا حريصين على أملاكهم وإيراداتهم ، وإذا لم يحضروا فى الوقـــت المحـــدد توضع أموالهم وممتلكاتهم فى قبضة الملك[٤] ، وقد أسفر ذلك عن عودة عدد كبـــير مـــن الأساتذة والدارسين معظمهم من رجال الدين إلى انجلترا إذعاناً للأمر الملكى عام ١١٦٧م، حيث أصبح من المتعذر على الدارسين الإنجليز الاستمرار فى دراستهم بفرنسا[٥] .

ويوجـــد شـــبه اجماع بين المؤرخين الانجليز المحدثين على أن تاريخ ميلاد جامعة أكسفورد باعتبارها "مدرسة عامة" يبدأ بهذه العودة الاضطرارية التى حدثت عام ١١٦٧ نتيجة للنزاع الكنسى والسياسى آنذاك . بيد أن الباحث يضيف إلى ذلك أن جامعة أكسفورد إنما تدين

---

١ Mallet, op. cit., p. 19;

كانتور ، المرجع السابق ، ص ٤٥٠ .

٢ Mallet, op. cit., p. 19.

٣ Rashdall, op. cit., p. 23; Mallet, op. cit., p. 22.

٤ من الجدير بالذكر أن الفقرة الخاصة بعودة الدارسين ورجال الدين من فرنسا ، عبارة عن دمج للبند الثانى والثامن من هذا المرسوم الملكى الذى يتضمن عشرة بنود . انظر النص اللاتينى لهذا المرسوم فى :
Willeimo Cantuariensi, Vita S. Thome, in, Materials for the History of Thomas Becket, vol. I, (ed.) Robertson, (Rolles Series), London, 1965, pp. 53-55;
ولمزيد من التفاصيل عن النزاع بين هنرى الثانى وتوماس بيكيت انظر :
Knowles, Thomas Becket, Stanford, 1970, pp. 1-183.

٥ Rashdall, op. cit., p. 24;

سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ١٨٤ .

بنشأتها بل ووجدوها أيضاً إلى المدارس القديمة الملحقة بالأديرة أكثر من هذه الهجرة المفاجئة الـتى حدثت بعد مرسوم الملك هنرى الثانى مع الأخذ فى الاعتبار أن أصل جامعة أكسفورد كمدرسة عامة ملحقة بالأديرة لا يعنى أبداً كونها مدرسة ديرية كما سبق ذكره .

على أية حال ، فقد تطلع هؤلاء الأساتذة والدارسين العائدين للبحث عن مركز جديد للتعلـيم ، وتنظـيم مقاعدهم فى مكان آخر، ووجدوا فى أكسفورد المرفأ الملائم ، ومن ذلك الحيـن فصـاعداً كـثرت الأدلة والإشارات التاريخية بأن أكسفورد قد أصبحت بالفعل مكاناً للدراسـة أى مدرسـة عامـة فـى ضـوء اصـطلاح العصر ، تذخر بالأساتذة والدارسين والتخصصـات من جميع الجهات ، وأحد مراكز التعليم الكبرى فى السنوات الأخيرة من حكم هنرى الثانى راعى الحركة الفكرية فى انجلترا آنذاك[1] .

إن أول إشـارة عن مدارس أكسفورد بعد عام ١١٦٧ إنما وجدت فى ثنايا الوصف الشـيق الذى تم سرده من قبل الرحالة والمؤرخ الويلزى جيرالد بارى Gerald de Barri ، الذى اشتهر بالاسم اللاتينى جيرالد كامبرنسيس Geraldus Cambrensis والذى يتحدث عن زيارتـه لأكسفورد عام ١١٨٦[2] . عندما قرأ كتابه الرصين "طبوغرافية أيرلندا" أمام الأساتذة والدارسـين المجتمعيـن فى أكسفورد على مدى ثلاثة أيام ، ووفقاً لراويته حيث يتحدث عن نفسه بضمير الغائب قائلاً : "عندما حان الوقت ، وتم انجاز العمل ، لم يرغب فى إخفاء علمه ومعرفته ، ويأبى أن يخفى شمعته تحت غطاء ، بل يود أن يضعها فى شمعدان ليشع ضوئها على الجميع ، لذا قرر قراءة كتابه علناً أمام جمع ضخم فى أكسفورد ، حيث يوجد بها أشهر رجال الاكليروس الإنجليز علماً ، وأمام هذا الحشد الكبير قسم عمله إلى ثلاثة أقسام ، كل قسم اسـتغرق يوماً ، واستغرقت القراءة ثلاثة أيام متتالية ، ففى اليوم الأول استقبل فى مقر إقامته الطلـبة الفقـراء مـن المديـنة؛ وفى اليوم الثانى جميع الأساتذة والبارزين من تلاميذهم فى التخصصات Faculties المختلفة؛ وفى اليوم الثالث باقى الدارسين ، بالإضافة إلى الكثير من

---

[1] Mallet, op. cit., p. 23.

[2] ولـد جـيرالد فـى ويلـز عام ١١٤٧ ، ورحل إلى باريس للدراسة ، ثم أصبح محاضراً مشهوراً فى المجموعة الثلاثية Trivium مـن الفنون السبعة الحرة ، وفى ضوء روايته عن تميزه كما ذكر فى حوليته ، أنه عندما كان أساتذة الآداب يرغبون فى اختيار نموذج للدارسين الممتازين ، كان الاختيار يقع عليه . وعندما عاد إلى موطنه الأصلى انجلترا ، أرتقى منصـب رئـيس شماسة بريسون Brecon . بيد أنه لم يتمكن من ارتقاء منصب أسقف كنيسة القديس ديفيد ، ولم يترك مدارس باريس إلا بعد أن أتم دراسته فى القانون الكنسى واللاهوت ، وفى عام ١١٨٤م تم تعيينه واحداً من قساوسة الملك هـنرى الثانى ، وبعدئذ أرسله الملك مرافقاً لابنه الأمير جون إلى ايرلندا ، وأسفرت هذه الرحلة عن كتابة أثنين من أهم أعماله هما وصف طبوغرافية ايرلندا ، والفتح الانجليزى لجزيرة ايرلندا . لمزيد من التفاصيل انظر :
Giraldus Cambrensis, Opera, (ed.) Brewer, vol. I, (Rolles Series) London, 1861, pp. 72-73; Rashdall, op. cit., p. 25; Lyte, op. cit., pp. 12, 13; Bordrick, op. cit., p. 6; Mallet, op. cit., p. 23.

الفرســـان وســـكان المديـــنة . وكان هذا عملاً نفيساً ونبيلاً ، يحتاج إلى شعراء العالم القديم لتمجيده وتخليده ، حيث لم يحدث ذلك من قبل فى انجلترا"[1] .

لا مـــراء أن هـــذا الوصف إنما يزيح النقاب عن تأكيد راسخ لوجود مؤسسة علمية أكبر من مجرد مدرسة عادية سواء كانت كاتدرائية أو ديرية . وفى ثنايا هذا الوصف تتراءى أيضـــاً الســـمات المميزة للمؤسسة العلمية من خلال المدرسة العامة Studium generale . وهـــو الاصـــطلاح الذى أطلق فى العصور الوسطى وفى انجلترا تحديداً على ما نعرفه اليوم باسم الجامعة . والتى يتطلب قيامها اجتماع الأساتذة والدارسين فى العديد من التخصصات فى مكان ما . وهذا ينطبق على هؤلاء المستمعين لقراءة جيرالد[2] . علاوة على ذلك ووفقاً لراوية المؤرخ رشدال أنه من بين الأشخاص الذين تم شفائهم بزيارة ضريح القديس توماس بيكيت ، شـــخص يدعـــى روبـــرت ، والذى تولى رئاسة دير القديسة فرايدزوايد فى أكسفـــورد عام ١١٤١م. حيـــث سمح له بمقعد للوعظ فى حضور الدارسين من مختلف أنحاء انجلترا . وكان أول من سمح له باستخدام مقعد عندما يقوم بالوعظ[3] .

وخـــتاماً لهـــذا الســـيل المـــتدفق من الأدلة التاريخية التى تعكس اجماع المؤرخين المحدثيـــن بـــأن البداية الحقيقية لظهور مؤسسة علمية فى أكسفورد ، إنما يرجع إلى الأحداث الـــتى أســـفرت عن الرحيل الجماعى للدارسين الإنجليز فى باريس بمقتضى المرسوم الملكى عـــام ١١٦٨م، وبالـــتالى الحرمان من حرية المرور إلى مركز كبير للتعليم الأوروبى . فمن الطبـــيعى أن تـــتذبذب أعداد الذاهبين إلى مدارس أكسفورد وتتأرجح مع كل تغيير يطرأ على العلاقـــات السياسية بين فرنسا وانجلترا، لاسيما فى الفترة من ١١٧٥-١١٨٥م؛ حيث شهدت هـــذه الفترة سلسلة متتالية من المنازعات بين المملكتين[4] . ولعل أبرز مثال على ذلك ما حدث للمـــؤرخ والرحالة جيرالد ويلز ، الذى منع نتيجة لهذا النزاع من الذهاب إلى باريس لدراسة اللاهوت عام ١١٩٢م[5] .

---

[1] Giraldus Cambrensis, op. cit., p. 73; Lyte, op. cit., pp. 13-14, B ordricke, op. cit., pp. 6,7; Mallet, op. cit., p. 24;

كان كتاب "طبوغرافية ايرلندا" بمثابة تجربة جديدة وفريدة ، بيد أنه لم يحظ بالقبول من جانب معاصريه ، من منطلق كيف يتســـنى لرئـــيس شماسة أن يبدد وقته فى تسجيل حياة الأيرلنديين المتصلبين فى الرأى ، ووصف المناظر الطبيعية وجمع التراث لبلد بربرى خام ، وأن ذلك مضيعة للوقت لا تليق برئيس الشماسة ، انظر : Lyte, op. cit., p. 13.

[2] Lyte, op. cit., p. 13.

[3] Rashdall, op. cit., p. 25.

[4] Ibid, p. 28, Knowles, Thomas Becket, p. 23.

[5] Rashdall, op. cit., p. 30;

ولمزيد من التفاصيل عن النزاع والعلاقات السياسية بين انجلترا وفرنسا فى عهد هنرى الثانى انظر :

زينـــب عـــبد المجـــيد ، الانجلـــيز والحروب الصليبية فى الفترة من ١١٨٩-١٢٩١ ، عين للبحوث والدراسات الإنسانية والاجتماعية ، الطبعة الأولى ١٩٩٦ ، ص ٦٥ ، ٦٦ .

[6] Giraldus Cambrensis, op. cit., Tome, I, p. 93.

علـــى أية حال ، بدأت مدارس أكسفورد التى أصبحت تذخر بالتخصصات والأساتذة والدارسين من جميع الجهات تحظى باهتمام السلطة الملكية ، وفى العامين السابع والثامن من عهـــد الملك ريتشارد الأول (١١٨٩-١١٩٩م) تميط السجلات الملكية اللثام عن الأموال التى كانـــت تمـــنح لإعالـــة الدارسين فى مدارس أكسفورد من المنح والهبات الملكية . فقد منح ريتشـــارد الـــذى ولـــد فى قصر بيمونت Beaumont بأكسفورد مكافأة مالية أسبوعية تقدر بنصـــف مـــارك لدعـــم دارس فى أكسفورد من هنغاريا Hungary (المجر) يدعى نيقولاس Nicholas . وقد يبدو غريباً للوهلة الأولى أن أول دارس حفظت السجلات اسمه كان أجنبياً. بـــيد أنـــه يجب تفسير ذلك فى ضوء حقيقة أن جامعات العصور الوسطى بصفة عامة كانت تتسم بطابع عالمى وليس قومى[1] . ويشير المؤرخ ريتشارد ديفز Richard of Devizes فى حوليـــته عـــن الملـــك ريتشارد الأول لكثرة أعداد الدارسين فى أكسفورد ، وأن المدينة كانت تســـتطيع بالكـــاد إطعامهم[2] . وفى عام ١١٩٧ استضاف سامسون Samson رئيس والقديس ايدمونـــد St. Edmund فى بيورى[3]، عدداً كبيراً من أساتذة أكسفورد عند زيارتهم للمدينة . وفـــى هـــذا العـــام أيضاً قام توماس ماربرج Thomas de Morleberge رئيس دير إيفهام Evesham بتعلـــيم القـــانون الكنســـى والمدنـــى فـــى أكســـفورد[4] . ويؤكـــد الكسندر نيكام Alexander Neckam الـــذى كتب عام ١٢٠٠م تقارب واتصال مدارس أكسفورد بكل من سالرنو Salerno وبولونيا بإيطاليا، ومونبلييه Montpellier وباريس، وأدرك نتيجة لذلك أن نبوءة مرلين Merlin "بازدهار الحكمة والمعرفة فى أكسفورد " قد تحققت الآن[5] .

---

[1] يؤكـــد الطابع العالمى لجامعات العصور الوسطى المرسوم الهام الذى أصدره الإمبراطور الألمانى فريدريك بربروسا (١١٥٢-١١٩٠م) فى مجمع رونكاجليا Diet of Roncaglia عام ١١٥٨م . والذى نص صراحة على الإدارة الآمنة ، وحماية الدارسين الأجانب الذين ينتقلون أو يسافرون عبر أراضيه ، انظر :

Lyte, op. cit., p. 14; Mallet, op. cit., p. 14.

[2] Richard of Devizes, De Rebus Gestis Richari Primi, in the Chronicles of Stephen, Henry II, and Richard I, vol., III, p. 437.

[3] يعد دير القديس إيدموند واحداً من أعظم الأديرة فى انجلترا فى العصور الوسطى ، ويستدل من مقدمة الحولية الخاصة بهذا الدير ، والتى كتبت فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر . أن الملك كانيوت Canute (١٠١٣-١٠٣٦م) قام بتأسيسه تخلـــيداً لذكرى القديس إيدموند ملك شرق انجليا Anglia ، الذى قتل أثناء محاربة الدانيين فى العشرين من نوفمبر عام ٨٧٠م . انظر تفاصيل ذلك فى :

The Chronicle of Bury St. Edmunds, pp. 1212-1310, (ed.) by Antonia Granseden, London, 1964, p. XI; Rashdall, op. cit., p. 32.

[4] Loc. Cit.

[5] يحتل الكسندر نيكام مكانة بارزة فى التاريخ الفكرى لانجلترا فى نهاية القرن الثانى عشر ، وأمضى سنوات كثيرة مدرساً فـــى أكسفورد ، وقس فى دير جيرنسيستر Girencester . ووفقاً لما ورد فى حوليته فقد ولد فى نفس الليلة التى شهدت ميلاد ريتشارد الأول ملك انجلترا ، فى الثالث عشر من سبتمبر عام ١١٥٧م وأمضى فترة حداثته وتلقى تعليمه الباكر فى دير القديس البانس St. Albans . وأمضى بعدئذ سنوات عديدة للدراسة فى باريس . وباعتباره من قساوسة دير القديس أغسطين فى جيرنسيستر فقد خدم كل من الملك والبابا ؛ ففى الثلاثين من أغسطس عام ١٢١٣ وأثناء وقوع المملكة تحت طائلة عقوبة اللعنة الكنسية ، أمره الملك جون (١١٩٩-١٢١٦م) بمرافقة جون هاستنجز John Hastings رئيس شرطة

لا مـــراء أن جامعة أكسفورد فى أقدم مراحلها تدين بالكثير لجامعة باريس ، التى لم تـتخذ صـــفتها الرســـمية كجامعة إلا فى أوائل القرن الثالث عشر تحديداً عام ١٢٠٠م . ففى ضوء الروابط التى كانت تربط بين انجلترا وفرنسا من خلال الممتلكات الانجليزية فى فرنسا ممـــثلة فـــى دوقيات نورماندى ، بريتانى Brittany، أكوتين Aquitaine ، وكونتيات مين Maine ، أنجـــو Anjou ، لـــو مارش Le March وبواتو Poitou . وعلاوة على السيادة الفكرية لباريس فى أوروبا الغربية ، كان يتوجه إليها أكثر الشباب الإنجليز طموحاً فى القرن الثانى عشر مثل جون السالزبورى ، توماس بيكيت ، ستيفن لانجتون ، روبرت جروستيت ، روجـــر بـــيكون وغيرهم . وكان حتماً مقضياً أن يجلبوا معهم عند عودتهم إلى وطنهم أفكاراً مستمدة من تجربتهم فى باريس، والتى غدت نموذجاً للتنظيم الأكاديمى فى أكسفورد . لذا فمن الطبيعى أن تكون الكثير من النظم واللوائح الداخلية لجامعة أكسفورد مستقاه من ذلك المصدر . فعلـــى غرار نظام الأروقة الأربعة فى جامعة باريس فى ضوء تقسيم الطلبة إلى مجموعات أربعـــة تمـــثل الـــبلاد الـــتى ينتمون إليها، وهى رواق الفرنسيين ، رواق الشماليين ، رواق البيكارديـــن (الشمال والشمال الشرقى من فرنسا وهولندا) ورواق الإنجليز، تحول إلى رواق للدارســـين الألمـــان ، بعد انقطاع العلاقات السياسية والثقافية بين انجلترا وفرنسا غداة حرب المائة عام (١٣٣٧-١٤٥٣م)، قامت جامعة أو بمعنى أدق مدارس أكسفورد على أساس نظام الأروقـــة الأربعـــة . بـــيد أن هذا التقسيم جاء قصير الأجل وسرعان ما اقتصر التقسيم على أســـاس أبـــناء الشمال Northermeris الذى يضم الدارسين القادمين من اسكتلندا . أما أبناء الجنوب Southermers فهم الطلاب القادمون من ويلز وأيرلندا[1] .

كـــل رواق مـــن هـــؤلاء أى رواق أبناء الشمال ورواق أبناء الجنوب يقوم باختيار مراقب Proctor . بيد أن هذين المراقبين كان يتم اختيارهما من بين الأساتذة وتحديداً أساتذة الآداب ولـــيس الدارسين . وهؤلاء المراقبين ورد ذكرهم لأول مرة عام ١٢٤٨م عند مثولهم أمـــام الملـــك هـــنرى الثالث (١٢١٦-١٢٧١م) لتقديم شكاوى الجامعة ضد انتهاكات اليهود

نيلوورث Kenilworth للتحرى بصدد الحقوق الملكية فى دير نيلوورث . وفى نفس العام أى ١٢١٣م تولى رئاسة دير جيرنسيستر . وفى عام ١٢١٥م كان ضمن الحاشية الملكية التى تتأهب لحضور المجمع اللاتيرانى الرابع الذى دعى إليه البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٦م) وعقد بمدينة روما عام ١٢١٥م . لمزيد من التفاصيل انظر الدراسة القيمة التى قام بها :

Russell, "Alexander Neckam in England", in E.H.R., vol. XLVIII,January, 1932, pp. 260-268; Rashdall, op. cit., p. 28.

[1] Lyte, op. cit., p. 15; Brodricke, op. cit., p. 7, 8; Mallet, op. cit., p. 40; Rashdall, op. cit., pp. 56, 57; Traill and Mann, Social England, Oxford, 1975, vol. I, pp. 613, 614; Willson, op. cit., p. 122.

نظـــير سعداوى ، تاريخ انجلترا وحضارتها فى العصور القديمة والوسطى ، دار النهضة العربية ١٩٦٨ ، ص ١١٧ .

ولمزيد من التفاصيل عن الهيكل التنظيمى للدارسين فى جامعة باريس انظر ، ياسر عبد المعبود ، المرجع السابق ، ص ص ٥٤ – ٦٥ .

وســكان مديــنة أكسفورد[1] . ويتضح أيضاً من بنود اتفاق السلام الذى أبرم عام ١٢٧٤م بعد انــدلاع واحــدة من منازعات الشغب بين الدارسين من أبناء الشمال والجنوب ، والذى نص على ضرورة دمج هؤلاء الدارسين فى جماعة واحدة ، والتصويت أيضاً باعتبارهم أبناء أمة واحدة . وبهذا يتلاشى مبكراً التصنيف العرقى الذى شهدته أولى الجامعات الإنجليزية ، رمزاً وتأكيداً لإتمام الوحدة القومية التى كانت انجلترا أسبق الممالك الأوروبية فى تحقيقها[2] .

وفــى أواخــر عــام ١٢٠٨م شهدت مدينة أكسفورد حادثة كان لها أكبر الأثر على مســيرة تطور الجامعة ، ففى الوقت الذى كان فيه النزاع بين الملك جون (١١٩٩-١٢١٦م) والــبابا أنوســنت الثالث قد بلغ أوج ذروته، قتلت امرأة شابة فى بيت عرف فيما بعد وتخليداً لهــذه الحداثــة باسم قاعة العذراء "Maiden Hall" على يد أحد الدارسين فى أكسفورد مما أســفر عــن اندلاع ثورة من الغضب العارم من جانب سكان المدينة؛ حيث ألقى القبض على العديــد مــن الدارســين . وعندما يأس السكان من العثور على الطالب القاتل ، قبضوا على

---

[1] جاء أول ظهور للمراقبين Proctors فى طيات أحداث الشغب الذى اندلع فى مدينة أكسفورد فى مايو عام ١٢٤٨م . حيث تعــرض دارس اســكتلندى مرموق وحسن الخلق أثناء مروره بكنيسة القديس مارتن فى كارفاكس Carfax للهجوم من جانب أبناء المدينة ، وعند فراره إلي وسط المدينة في الشارع الرئيسى إنهال عليه وابل من الحجارة وفضلات الذبائح من حوانيــت الجزاريــن . ولم يلبث أن سقط صريعاً متأثراً بالجراح التى لحقت به نتيجة الضرب المتكرر من مطارديه . ونظراً لعدم اكتراث المسئولين بالمدنية بهذا الأمر ، توقف أساتذة الجامعة عن إلقاء المحاضرات ، وأقسموا على مغادرة جميع الدارسين لمدينة أكسفورد إذا لم يتم القصاص . وعدم دفن جثة الطالب لحين تلق ردوداً ملائمة ومرضية من الملك وأسقف لنكولن . ولم يتوان روبرت جروستيست Robert Grossetest أسقف لنكولن (١٢٣٥-١٢٥٣م) لحظة واحدة فى إعلان عقوبة الحرمان الكنسى عن القتلة ، والبحث عنهم بمساعدة أبناء المدينة . بيد أن أساتذة الجامعة لم يقتنعوا بإنهاء المســألة عــند هذا الحد والإصرار على ضرورة الحصول على ضمان بعدم تكرار منازعات مماثلة . ومن ثم أرسلوا مراقبيــن ممثلين عنهم لعرض شكواهم أمام الملك فى وودستوك Woodstock . ولم يتردد الملك فى منح عهد يتضمن امتيازات للجامعة ، أمر فيه بضرورة أن يتم التحقيق فى أى أخطاء أو أضرار تقترف فى حق الدارسين فى أكسفورد ، بواســطة محلفيــن من أبناء المدينة ، وأشخاص محايدين من المناطق المجاورة . وفى حالة تعرض أى دارس للقتل أو الإصــابة الخطيرة من جانب أبناء المدينة ، تفرض غرامة على كل السكان . وعقاب النواب المحليين بشكل منفصل إذا ثبت تقصيرهم فى أداء واجباتهم . وأمر بضرورة أن يقسم كل عمدة Mayer ونائب Bailiff فى أكسفورد عند تولى مهام مناصــبهم علــى احترام حريات الجامعة وتقاليدها الراسخة ، وأن يدعى مستشار الجامعة دائماً لسماع أداء هذا القسم . وبهدف التغلب على أحد الأسباب الرئيسية للنزاع بين الجامعة والمدينة منع اليهود من تقاضى أكثر من ثلاثة وأربعين فى المائــة كفــائدة علــى القروض المقدمة للدارسين ، وأمر الملك أيضاً بضرورة الحضور الشخصى لكل من المستشار والمراقبين أو من خلال مندوبيهم عند توزيع الخبز والبيرة . ولمزيد من التفاصيل بهذا الشأن انظر :

Lyte, op. cit., pp. 43-44; Rashdall, op. cit., p. 57.

[2] شــهدت الفترة من ١٢٧٦-١٢٨٤ تكريس الاهتمام الرئيسى للملك إدوارد الأول (١٢٧٢-١٣٠٧م) لإخضاع ويلز . ففى عــام ١٢٨٤م أصدر قانوناً يقضى بضمها إلى التاج الانجليزى ، وتطبيق القوانين الانجليزية . وفى عام ١٣٠١ أضفى علــى أكبر أبنائه لقب أمير ويلز . وهو اللقب الذى لازم ولى العهد فى انجلترا حتى يومنا هذا . وجاءت جهوده فى هذا الصــدد تــتويجاً لجهود اسلافه الرامية لتوحيد الجزر البريطانية ويلز ، ايرلندا ، اسكتلندا فى مملكة واحدة ، لمزيد من التفاصيل انظر :

Chronicle of Reigns of Edward I and Edward II, vol. I (ed.) W. Stubbs in Rolles Series, London, 1881, p. 89; Rashddall, op. cit., p. 33-35.

زينب عبد المجيد ، المرجع السابق ، ص ٢٢٧ -٢٢٨ .

طالبيـــن أبـــرياء كانا يقيمان معه بدلاً منه، وتم ايداعهما السجن، وشنقهما بعد ذلك . ولم يكن مفاجأة من الملك الواقع تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسى والتهديد بالعزل من جانب البابا ، وفـــى محاولـــة لتهدئة غضب الجموع الثائرة أن يبدى موافقته على إعدام اثنين من الدارسين وحبس ثلاثة . ولم يتردد البابا فى وضع المدينة تحت طائلة عقوبة اللعنة وأعلن منع التدريس فـــى أكســـفورد . وأغلقت معظم مدارس أكسفورد[1] وعلى حد تعبير المؤرخ ماكسويل لوت Maxwell Lyte " بـــدا لفـــترة من الوقت كما لو أن التعليم الانجليزى سوف يضطر للرحيل عـــن أكسفورد لمكان آخر أكثر هدوء"[2] . وبالفعل ذهب بعض الدارسين لمواصلة دراساتهم فـــى بـــاريس ، وتوجـــه الـــبعض الآخر إلى ريدنج Reading ، وميدستون Maidstone ، وكمبريدج Cambridge . بحيث لم يبق دارس واحد فى أكسفورد[3].

وفـــى عام ١٢١٤م الذى شهد إذعان الملك جون للبابوية ، صدر أول مرسوم بابوى يتسم بكونه عهداً بالامتياز حق لجامعة أكسفورد أن تتباهى به ونص على :

".. تمـــتع الدارســـين فـــى مـــدارس أكسفورد لمدة عشر سنوات بالإعفاء التام من إيجـــارات البـــيوت التى يقيمون بها . وأن يقيم سكان المدينة مأدبة عشاء لمائة من الدارسين الفقـــراء كل عام فى عيد القديس نيقولاس Nicholas راعى الدارسين وأن تدفع المدينة مبلغاً ســـنوياً يقدر بحوالى اثنين وخمسين شلناً توزع على الدارسين الفقراء، وأن تدفع هذه الأموال إلـــى رئيس دير أوزنى Oseney ، ورئيس دير القديسة فرايدزوايد، وأن يكون توزيعها من اختصـــاص أســـقف لنكولـــن أو مستشاره . وأن يقسم سكان المدينة على تزويد الدارسين فى المستقبل بالمؤن بأسعار ملائمة . وفى حالة القبض على أى دارس فى المستقبل ينبغى تسليمه إلـــى أسقف لنكولن ، أو إلى رئيس شماسة أكسفورد أو نائبه أو إلى المستشار المعين من قبل الأســـقف للإشـــراف على الدارسين ، أو لأى مندوب آخر معتمد من السلطة الأسقفية . وكل الأســـاتذة الذين استمروا فى التدريس بعد انسحاب الطلاب بعد إحداث شغب ١٢٠٨م ، وفى تحد سافر للسلطة الكنسية والأكاديمية ، يمنعوا بمقتضى الأمر البابوى من التدريس لمدة ثلاث سنوات ، وحرية كل الأساتذة والدارسين فى العودة واستئناف محاضراتهم"[4] .

---

[1] Lyte, op. cit., p. 17; Brodricke, op. cit., p. 9; Rashdall, op. cit., p. 33.

[2] Lyte, op. cit., p. 16.

[3] Brodricke, op. cit., p. 9, Lyte, op. cit., p. 18.

[4] فـــى ثـــنايا أحداث عام ١٢٠٨م شرعت السلطات الكنسية فى أكسفورد فى وضع المدينة تحت طائلة حرمان كنسى أكثر صرامة من ذلك الحرمان الذى فرضه البابا أنوسنت الثالث على المملكة ، مما أدى إلى معاناة سكان المدينة روحياً ومادياً . فقـــد ترتب على رحيل الدارسين عن المدينة ، ترك البيوت والقاعات التى يقيمون بها بلا مستأجرين . وركود النشاط التجارى بالمدينة . واستمر هذا الحال لأكثر من أربع سنوات ، حتى مجئ المبعوث البابوى نيكولاس Nicholas أسقف تسكاليوم Tusculum إلى انجلترا عام ١٢١٣م . وتقدم سكان المدينة إليه بالتماس مناشدين إياه بالعفو والحماية والتعهد بالالـــتزام بقـــراره . وبناءً على أمره وتكفيراً عن أحداث عام ١٢٠٨م ، على سكان المدينة المتهمين بالمشاركة فى هذه الأحداث الحضور حفاة الأقدام ، عراة الأجساد ، حاملين الأسواط فى أيديهم ، إلى مقابر الطلاب القتلى ، وإعادة دفنهم فى

وفـــى ضوء هذا المرسوم البابوى الذى جاء تأكيداً وتتويجاً لاعتراف البابوية بحقوق الدارســين فـــى أكســـفورد ، وتكفيراً عن الاعتداء الذى تعرض له الدارسون من قبل سكان المديـــنة عام ١٢٠٨م، يذكر المؤرخ الانجليزى ماليت Mallet أن كل الجامعات فى العصور الوسطى كانت تبتهج بالحصول على الحماية البابوية ، ودعم حقوقها بالتأييد البابوى . ومن ثم وعلـــى غرار جامعة باريس التى تدين للبابوية بأول اعتراف بوجودها كمؤسسة علمية، تدين جامعـــة أكسفورد للبابوية بأول عهد امتياز ، وبداية هذه الحصانات القوية التى جعلت جماعة الأساتذة والدارسين هى الأسمى تقريباً داخل أسوار المدينة[1] .

وتتراءى أهمية المرسوم البابوى عام ١٢١٤م فى أنه تضمن أول إشارة عن منصب المستشـــار Cancellarius or Chancellor، وأن تعيينه كان من اختصاص أسقف لنكولن . بسيد أن مستشـــار الجامعـــة المشـــار إليه فى المرسوم كان موجوداً بالفعل تحت اسم رئيس المدارس Magister Scholarum or Head of the Schools . ويرى المؤرخ الانجليزى رشدال أن هذا النائب المعين من قبل أسقف لنكولن إن لم يكن ينتخب بواسطة الأساتذة أنفسهم ، كـــان على الأقل يتم اختياره من بينهم . لذا فقد بدا مركز المستشار فى أكسفورد من الناحية العملـــية مغايراً تماماً لمستشار جامعة باريس المقيم فى كاتدرائية نوتردام . ونظراً لأن مدينة أكسفورد تبعد عن أسقفية لنكولن بمسافة تناهز مائة وعشرين ميلاً، فقد وجد أساقفة لنكولن من الملائـــم والضـــرورى تعيـــن مستشـــار مستقل فى أكسفورد للإشراف وحماية رجال الدين الدارســـين بهـــا . ونظـــراً لعـــدم وجود كنيسة كاتدرائية أو أسقفية فى مدينة أكسفورد ، فإن الأسباب التى من الممكن أن تدفع المستشار للإصطدام مع الجامعة غير قائمة . وعلى النقيض مـــن جامعـــة بـــاريس لم يكن مستشار جامعة أكسفورد عضواً معادياً للجامعة ، وإنما يدين بوجـــوده للجامعـــة؛ لاسيما وأن أسقف لنكولن الذى يستمد منه سلطته وصلاحيته يقطن بعيداً متقلاً بأعباء أسقفيته الكبيرة الممتدة جنوباً حتى نهر التيمز . ومن ثم لم يكترث كثيراً بتفاصيل الإدارة فـــى مدارس أكسفورد . لتبدو مدارس أو جامعة أكسفورد من البداية أكثر استقلالاً ، وبمـــنأى عـــن قـــيود الجو الأسقفى الذى خيم بظلاله على جامعة باريس . وبالتالى ليس ثمة ضـــرورة لأن تلهـــث مدارس أكسفورد وراء استجداء التأييد البابوى للتحرر من نير السلطة الأســـقفية، لينـــتقل مستشـــار جامعـــة أكسفورد تدريجياً إلى مركز مدير أو رئيس الجامعة، والحصـــول بالـــتالى علـــى مركز فى جماعة الأساتذة Universitas Magistorium .وهو المركـــز الـــذى ظل مستشار كاتدرائية نوتردام فى باريس غيورا دائما للحرمان منه . وتظفر

مكان يتم اختياره بعناية . والتهديد بتجديد عقوبة الحرمان الكنسى بواسطة أسقف لنكولن فى حالة التقصير عن تنفيذ ذلك . وفور الإذعان لذلك تم رفع عقوبة الحرمان الكنسى وعودة الدارسين واستئناف المحاضرات فى أكسفورد ، انظر ذلك فى:
Lyte, op. cit., pp. 18, 19; Mallet, op. cit., p. 28; Brodricke, op. cit., pp. 9, 10; Rashdall, op. cit., pp. 34-35.

[1] Mallet, op. cit., p. 25.

الجامعة فى النهاية بالسلطات القضائية التى يتمتع بها المستشار والبت فى أى قضية يكون أحد الطلاب طرفاً فيها[1] .

علـــى أيـــة حال ، فإن مستشار الجامعة الذى تم الإشارة إليه لأول مرة فى المرسوم الـسابوى عـــام ١٢١٤م ، كان فى البداية يعين من قبل أسقف لنكولن الذى يستمد منه سلطته وصلاحيته بيد أنه من البداية كان يتم اختياره من بين الأساتذة باعتباره أستاذاً فى اللاهوت أو القـــانون الكنســـى . الأمـــر الـــذى جعل اعتماده على الأسقف – كما سنرى – يكاد يتضاءل ويتوارى والسلطات القضائية التى ظفر بها من الأسقف آلت إلى الجامعة[2] .

ويذكر المؤرخ الانجليزى بودريك Brodrick أن الجدل لا يزال قائماً بصدد التاريخ الذى غدت فيه مدارس أكسفورد جامعة لها مستشار خاص بها بالمعنى القانونى ، رغم وجود خـــتم يـــرجع تاريخـــه إلـــى عـــام ١٢٠٠م ويحمـــل عـــبارة Sigillum Cancellariet Universitatis Oxoniensis . ولـــم يتقرر على وجه اليقين ما إذا كان المستشارون الأوائل قـــد اســـتمدوا ســـلطتهم أساساً من أسقف لنكولن باعتباره أسقف الأبروشيه، أو كانوا مديرين منتخبين Elective Rectors للمدارس يتم اقرار انتخابهم بواسطة أسقف لنكولن . بيد أنه من المؤكـــد أن الرئـــيس الفعلـــى للجامعـــة أصبح يسمى مستشاراً Cancellarius وليس رئيس المـــدارس[3] . ويضـــيف إلى ذلك المؤرخ الانجليزى لوت Lyte بأنه حتى أوائل القرن الثالث عشـــر كان مستشارو المدارس فى أكسفورد يعملون ببساطة بصفتهم مندوبين عن الأسقف . ولكن خلفائهم – كما سنرى – بدأوا يذوبون تدريجياً فى الهيئة الأكاديمية وفى النهاية أصبحوا مستقلين تماماً عن السلطة الأسقفية[4] .

وبـــدءً مـــن منتصف القرن الثالث عشر كان المستشار يعامل باعتباره ممثلاً مستقلاً للجامعـــة ، بينما لم يكن النائب الرسمى للأسقف فى الجامعة هو المستشار بل رئيس شماسة Archdeacon أكســـفورد ، الـــذى يمـــثل أعلى سلطة كنسية مقيمة بالمدينة . وتبدأ القائمة الرســـمية للمستشـــارين فى أكسفورد فى عام ١٢٢٠ عندما يذكر أسماء ثلاثة أشخاص شغلوا ذلك المنصب . وبدءً من هذه الفترة يمكن أن نحدد تاريخ انتخاب المستشار . وفى عام ١٣٢٢ أصبح ارتقاء منصب المستشار يتم بالانتخاب من خلال اجتماع كنسى ، رغم أنه ظل خاضعاً لفترة طويلة لإقرار تعيينه من جانب الأسقف[5] .

---

١ Ibid, p. 27; Lyte, op. cit., p. 19; Brodricke, op. cit., pp. 9, 11; Rashdall, op. cit., p. 52.

٢ Rashdall, op. cit., pp. 81, 82; Mallet, op. cit., p. 27.

٣ Brodrick, op. cit., pp. 11-12.

٤ Lyte, op. cit., p. 19.

٥ Brodrick, op. cit., p. 12.

وبــدءً من منتصف القرن الثالث عشر بدأت الجامعة فى تسجيل قوانينها . ولعل من أهــم القوانيــن فــى تلك الفترة رفض منح درجة اللاهوت لأى دارس إلا بعد الحصول على درجة الآداب أولاً[1] . ولهذا التشريع قصة!

فقــد قــدر للعقــد الثــاني من القرن الثالث عشر، وعلى حد تعبير المؤرخ ماليت Mallet ،أن يشــهد حدثــاً ســعيداً للروح والفكر فى أكسفورد . ففى العام الذى شهد اغتيال تومــاس بيكيت فى كاتدرائية كانتربرى عام ١١٧٠م ولد القديس دومنيك St. Dominic فى أســبانيا . وبعــد ذلك بإحدى أو أثنى عشر عاماً ولد فى أسيس Assis بإيطاليا ورع آخر هو القديس فرانسيس St. Francis [2] .

وفى عام ١٢٢١م جاء إلى انجلترا مجموعة صغيرة من الرهبان الدومنيكان ، الذين اشــتهروا فــى انجلترا باسم الأخوة السود Black Friars . وبعد ذلك وفى عام ١٢٢٤ قدم الرهبان الفرنسيسكان الذين عرفوا باسم الأخوة الرماديين Grey Friars طبقاً لألوان مسوحهم الدينــية . وعلــى عكــس جماعات الرهبان الأقدم الذين يطيب لهم المقام فى المناطق النائية الهادئــة ، وبهدف الحصول على مريدين جدداً تجد الرهبان الفرنسيسكان والدومنيكان للإقامة فــى المدن المزدحمة ، لاسيما تلك التى بها جامعات . لذا ولوا وجوهم شطر أكسفورد . فقد رســخ أقرانهم فى باريس أقدامهم فى ارتباط وثيق بالجامعة . ومن ثم كانوا تواقين للحصول على مكانة مماثلة فى المركز الرئيس للتعليم فى انجلترا . علاوة على الرغبة فى جذب المزيد لاعتــناق الديانــة المسيحية ، فقد كانت أكسفورد ملاذاً مفضلاً لليهود الذين سكنوا فى الجزء الجــنوبى مــن المديــنة بأعداد كبيرة . وكان الحى الواقع بين الشارع الرئيسى ودير القديسة فــريدزاويد معــروفاً بحــى اليهود . وقد حالف النجاح جهودهم طيلة الخمس وعشرون عاماً

---

[1] Rashdall, op. cit., p. 69.

[2] من الجدير بالذكر أنه حتى بداية القرن الثالث عشر كان الهدف الأساسى للنظام الديرى يتمثل فى ضمان الخلاص لأرواح الرهبان ، وبعد انطفاء جذوة الحماس للعمل التبشيرى فى قلوبهم كرسوا أنفسهم تماماً لقاعدة أثانية فى الحياة والعزلة عن العالم الخارجى فى أروقة أديرتهم الفسيحة . ولم يعتبروا أن من واجبهم القيام بالوعظ علناً ، وزيارة المرضى ، وسماع اعترافات التائبين ، ومن ثم كان أثرهم ضئيلاً نسبياً على الناس . ونتيجة لفشل النزعة التطهرية فى القرن الحادى عشر ، والانسحاب الديرى فى القرن الثانى عشر فى تحقيق أهدافها من عوامل وتشجيع نمط جديد من النظام الديرى جاء مزيجاً بين نقيضين من النظم الديرية . هذا الشكل الجديد المنظم من النسك أتاح لأتباعه حياة تقليدية تتسم بالزهو والفقر والطاعة ، كما أتاح لهم فى الوقت نفسه أن يعملوا ويساهموا بشكل شخصى ومباشر فى خدمة ورفاهية المجتمع . وكانت التجارب الــتى مر بها هذا النظام الديرى الجديد هى الخلفية التى برزت منها جماعة الأخوة الفرنسيسكان والدومنيكان فى القرن الثالــث عشر . وبهدف العمل على نشر الكاثوليكية باقتلاع جذور الهرطقات الدينية ، وبرعاية البابوية وخدمة أهدافها ، اتجــه الرهــبان من هاتين التنظيمين إلى هداية الناس بمخاطبة فكرهم وعقولهم ، وتكملة العمل المعتاد لقساوسة الكنائس الأبروشية . لمزيد من التفاصيل بصدد ذلك انظر : Mallet, op. cit., p. 54; Lyte, op. cit., p. 23; Rashdall, op. cit., p. 66; Green, op. cit., pp. 139-140; كانــتور ، المرجع السابق ، ص ٥١٨ ، موريس كين ، حضارة أوروبا العصور الوسطى ، ترجمة قاسم عبده قاسم ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٤ ، ص ١٦٢ .

الأولـــى مـــن إقامـــتهم فى أكسفورد . وغدت لهذه الجماعات الدينية السيادة على حلبة الحياة الفكـــرية فى القرن الثالث عشر ليس فقط فى انجلترا ولكن فى جميع أرجاء أوروبا، وصاروا رواد أجـــراً فكـــر فلسفى فى الكنيسة فى العصور الوسطى ويكفى الرهبان الفرنسيسكان فخراً أنهم قدموا آدم مارش وروجر بيكون فى عصر واحد[1] .

وفـــى الوقـــت الـــذى بســـطت فيه مدارس أكسفورد راحتيها للأخوة الفرنسيسكان والدومنـــيكان لـــتعلو بهمـــا لا عليهما، بارتقاء اثنين منهم لمنصب رئيس أساقفة كانتربرى[2]، علاوة على التأييد الملكى[3]، لم يلبث أن بات الصدام بينهم وبين الجامعة قاب قوسين، بعد فترة قصـــيرة ســـاد فيها التفاهم والانسجام بينهم وبين الجامعة، قام خلالها الفرنسيسكان بالاستعانة بأساتذة اللاهوت العلمانيين فى مدارس أكسفورد للتدريس فى مدارسهم الديرية . بيد أنه بهدف وضـــع حـــد لـــتكاثر الأساتذة من الأخوة ، وضمان سيطرة الجامعة على الخريجين منهم من جهـــة، وإصـــرار الرهـــبان الفرنسيسكان والدومنيكان من جانبهم على رفض الحصول على

---

[1] فـــور اســـتقلال الأخـــوة الدومنيكان فى قلب أكسفورد ارتبطوا مبكراً بالجامعة بتأسيس مدرسة للاهوت . وكذلك أقرانهم الفرنسيسكان ، والذين قدر عددهم لحظة وصولهم لانجلترا تسعة من الرهبان بزعامة اجنيليوس البيزى Agnellus of Pisa أربعة منهم من رجال الدين ، ثلاثة منهم انجليز الأصل ، فى حين كان الباقى علمانيين من الإيطاليين والفرنسيين . وسرعان مـــا ذاع صيتهم ، وجذبوا لمدارسهم أعظم العلماء شهرة ، فهذا هو روبرت جروستيست (١١٧٥-١٢٥٣م) عالم اللاهوت البارز ، وأول محاضر فى مدارس الفرنسيسكان والراعى الحميم له فى انجلترا والذى نادى بأن سلطة الكتاب المقدس تسمو فوق البابا والمجامع للكنسية ونصوص الكنيسة ، وأول من أدرك ضرورة دراسة اللغتين اليونانية والعبرية . أيضاً آدم مارش Adam March الذى اعترف به واحداً من أبرز رجال الكنيسة فى منتصف القرن الثالث عشر . وأبدى تعاطفه مع قضية الأيـــرل سيمون مونتفورى ، أثناء النزاع البارونى الشهير ، مخاطباً إياه بقوله "أن الرجل الحكيم أفضل من الرجل القوى ، وأن الذى يستطيع كبح جماح غضبه أفضل من الذى يعصف بالمدينة " . وأيضاً روجر بيكون Roger Bacon . أحد أساتذة أكســـفورد البارزين . وأول انجليزى ينخرط فى صفوف الدومنيكان . وكرس نفسه لدراسة الكيمياء والفيزياء والرياضيات والميتافيزيقا . وذهب إلى باريس محاضراً فى فلسفة أرسطو ، وغير هؤلاء الكثير . ولمزيد من التفاصيل انظر :

The Chronicles of the Reigns of Edward I and Edward II, vol. I, p. 87; Little, the Franciscan Scfool At Oxford in the Thirteenth Century, (ed.) in Archivum Franciscanum Historicum, XIX, October, 1926, pp. 803-804; Mallet, op. cit., pp. 57-63, Lyte, op. cit., pp. 24-25; Rashdall, op. cit., p. 68; Brodrick, op. cit., p. 51, Lunt, op. cit., pp. 182-183.

[2] هذيـــن الراهبيـــن مـــن الفرنسيسكان والدومنيكان اللذان ارتقيا منصب رئيس أساقفة كانتبربرى هما روبرت كيلاردباى Robert Kilwardy ، وينتمى لطائفة الدومنيكان ، وارتقى منصب رئيس الأساقفة عام ١٢٧٢ ، وذاع صيته فى النحو والمنطق واللاهوت . أما الآخر فهو باتهام Patcham من طائفة الفرنسيسكان ولعب دوراً بارزاً فى الشئون السياسية . وتعلم فى أكسفورد العلوم واللاهوت والشعر والرياضيات . وقام الأول بزيارة الجامعة عام ١٢٧٧ ، والثانى عام ١٢٨٤ . وأسفرت هاتين الزيارتين عن إدانة الأخطاء الناجمة عن تدريس فلسفة أرسطو . لمزيد من التفاصيل انظر :

Mallet, op. cit., p. 70.

[3] فـــيما يـــتعلق بالدعم الملكي لهؤلاء فى عام ١٢٦٤م منح الملك هنرى الثالث Friars Minors برجاً صغيراً على سور المدينة القريب من مقرهم . وفى عام ١٢٥٨م منحهم عشرة شجرات بلوط لبناء مقر لمدارسهم . وكان من عادة الملوك الإنجلـــيز عند زيارتهم للمدينة منح مبالغ مالية لمؤسسات الأخوة الموجودة بها . وأصبحت هذه الأموال فى نهاية القرن الثالـــث عشـــر تحـــدد بمعدل أربعة دينار لكل راهب من الأخوة . ويتوج وجودهم فى انجلترا بتأسيس مدرسة اللاهوت بمحاضر من الفرنسيسكان فى دير كاتدرائية كانتربرى عام ١٢٧٥م ، الأمر الذى أثار مخاوف الرهبان فى الكاتدرائية ، انظر تفاصيل ذلك فى :

Gervasii Cantuariensis, op. cit., vol. II, p. 285; Little, op. cit., p. 819.

درجـــات علمية فى أى تخصص باستثناء اللاهوت والقانون الكنسى، حيث كان هدفهم يرمى إلـــى إعـــداد الـــرجال المتمرسين للعمل الرعوى . لذا أمرهم أعظم أساتذتهم بدراسة الكتاب المقـــدس ولـــيس كـــتاب الأحكام Sentences لبطرس اللمباردى وكانت تقاليدهم تمنعهم من الحصول على درجات علمية فى الآداب[1] .

وأصـــرت الجامعـــة علـــى أن التقاليد تقضى بأن المرشح للحصول على درجة فى اللاهـــوت يجـــب أن يكون متخرجاً فى الآداب ، وأثيرت هذه المشكلة بالفعل عام ١٢٥٣م . عـــندما تقـــدم الراهـــب الفرنسيسكانى زائع الصيت توماس من يورك Thomas of York بالـــتماس مـــؤداه الترخيص له بالتخرج فى اللاهوت بيد أنه لم يدرس فى الآداب . وسمح له بالترخـــيص بالـــتدريس ، والحصـــول على درجته فى اللاهوت لخبرته وكفاءته ، مما يجعله مؤهلاً لأن يمنح استثناء Graces يتبوأ بمقتضاه درجة ممارس استثنائى Ordinary regent فـــى الكتاب المقدس . وفى محاولة لرأب الصدع وحسم النزاع أصدرت الجامعة قانوناً ينص علـــى عدم السماح لأى شخص فيما بعد بالحصول على درجة فى اللاهوت ما لم يكن دارساً لـــلآداب أولاً وأن يلقى محاضرة فى كتاب الأحكام لبطرس اللمباردى ، والذى يتطلب تعليماً فلسفياً فى الميتافيزيقا والجدل ، قبل أن يسمح له بأن يحاضر فى الكتاب المقدس[2] .

ونســـتطيع أن نقـــول فـــى ضـــوء هـــذا النزاع الذى اندلع بين الجامعة والرهبان الفرنسيســـكان والدومنـــيكان ، لاســـيما بعد أن تم تعيين محكمين Arlitrators من الطرفين للـــتعامل مع المسألة برمتها ، التى عرضت أمام البابا كليمنت الخامس (١٣٠٥-١٣١٤م) عام ١٣١٣م، وإقـــرار قـــرار المحكميـــن مـــن جانب الملك إدوارد الثانى (١٣٠٧-١٣٢٧م) عام ١٣١٤م، بـــأن الجامعة كسبت النقاط الرئيسية موضع الخلاف وتأييد قوانينها ودعم سلطتها . ومـــن ناحية فقد قدمت تنازلاً يبدو باهتاً - من وجهة نظرى - للأخوة الرهبان مؤداه أن أى أســـتاذ يـــرفض الاســـتثناء graces الذى يمنح الراهب الحق فى التخرج فى اللاهوت بدون الدراســـة فـــى الآداب أولاً مطالـــب بأن يبرهن للأساتذة الممارسين أو النظاميين Regent Masters بأن اعتراضه ليس قائماً على سوء نية أو قصد[3] . علاوة على قرار الجامعة بعدم تنفيذ القوانين إلا بناءً على تصويت أغلبية الأساتذة الممارسين فى التخصصات الثلاث الآداب

---

[1] Rashdall, op. cit., pp. 67-68; Mallet, op. cit., p. 72, Liule, op. cit., p. 823.

[2] من الجدير بالذكر أن الأخوة الدومليكان والفرنسيسكان القائمين بتدريس اللاهوت فى مؤسساتهم التى خارج مدن الجامعة ، لـــم يكـــن الأمر يتطلب ترخيصاً من أى سلطة خارج مؤسستهم ، وذلك بمقتضى مرسوم البابا الكسندر الرابع (١٢٥٤-١٢٦١م) عـــام ١٢٥٧م . والـــبابا كليمنـــت الرابع (١٢٦٥-١٢٦٨م) عام ١٢٦٥م . ولم يكن المحاضرين الفرنسيسكان خاضـــعين بأيـــة طريقة لمستشار الكنيسة الكاتدرائية فى الأسقفية التى يدرسون بها . بيد أنه فى أكسفورد لابد أن يحظى المحاضر من الأخوة الفرنسيسكان قبل الاعتراف به مدرساً بالموافقة من جانب كل من مؤسسته الدينية والجامعة . انظر :
Munimenta Academica, Rolls Series, ed. By Anstey, London, 1868, vol. I, p. 25, Little, op. cit., pp. 82, 822, Mallet, op. cit., p. 73, Lyte, op. cit., pp. 53, 54.

[3] Mallet, op. cit., pp. 74-75; Little, op. cit., p. 823, Rashdall, op. cit., p. 71.

والطـــب والقانون بدلاً من اثنين؛ بالإضافة إلى الأساتذة غير الممارسين أو المتفرغين Non Regent Masters . ويضـــيف المؤرخ رشدال بإيضاح أكثر أنه بناء على شكوى جماعات الرهبان المتسولين Mendicants Orders ، بأن القوانين كانت تصدر بدون اهتمام كاف من الأقســـام أو التخصصات Faculties الرئيسية الآداب ، اللاهوت ، القانون والطب . فقد تقرر بأنـــه مـــن الآن فصاعداً عدم إصدار أى قانون من قبل الجامعة إلا بناء على قرار الإجتماع العـــام للأســـاتذة الممارسين General Congregation of Regent Masters ، وأن تسلم مســـودات القوانيـــن المقترحة للأساتذة فى كل قسم قبيل التصويت فى الاجتماع بخمسة عشر يومـــاً . وحظيت هذه القرارات بموافقة الرهبان الدومنيكان والفرنسيسكان ، والإذعان للجامعة بيد أن النزاع بين الطرفين لم يتوارى تماماً، وظل يطفوا على السطح من حين لآخر[1] .

وفـــى ســـياق هذا العرض لا يفوتنا الحديث عن أقوى التحديات التى طرحتها حركة التعليم الجديدة فى هذه الجامعات الناشئة . لقد صارت مؤلفات أرسطو بمتناول الغرب بفضل الترجمات التى أعدت فى الأندلس وصقلية والبروفانس . وحتى الربع الأخير من القرن الثانى عشـــر كانت ترجمة هذه المؤلفات تتم نقلاً عن النصوص العربية ، وليس نقلاً عن النصوص اليونانية الأصلية[2] . وبحلول عام ١٢٠٠ بدأت ترجمة مؤلفات أرسطو عن اليونانية مباشرة . وكـــان توماس الأكوينى Thomas Aquinas العالم الدومنيكانى أول فيلسوف مسيحى يمتلك

---

[1] لا مـــراء أن النزاع بين الجامعة والرهبان الدومنيكان والفرنسيسكان يعكس فى جوهره العداء الشديد بينهم ورجال الدين العلمانيـــن لا سيما وأن معظم أعضاء الجامعة فى أكسفورد مثل أقرانهم فى باريس كانوا من الكهنوت العلمانيين . ومن الجدير بالذكر أن نفقات الإجراءات القانونية للجامعة ضد الرهبان كانت تمول من خلال ضريبة على الأملاك الكنسية فى المملكـــة . وبعد تسوية القضايا الأكاديمية بين الطرفين ، تحول النزاع بينهما إلى مشكلة السن التى تسمح بها التنظيمات الرهبانـــية للانخراط فى سلك الرهبنة . وفى عام ١٣٥٨ أصدرت الجامعة قانون ضد ما أسمته خطف الأولاد الذين يقل عمـــرهم عـــن ثمانية عشر عاماً . للالتحاق بمؤسساتهم لتعليمهم التسول وتبديد الوقت ونص القانون صراحة بأن النبلاء والعوام يخشون إرسال أبناءهم إلى الجامعة ، مخافة اغوائهم من قبل الرهبان المتسولين بالانضمام إليهم قبل بلوغهم سن الرشـــد . مما يؤدى إلى تعكير صفو السلام فى الجامعة وقلة عدد الدارسين فيها . وإذا حدث عكس ذلك فلن يسمح لأى خـــريج من مدارس أديرة هؤلاء بإلقاء أو حضور محاضرات فى أكسفورد خلال العام التالى للاختطاف من وجهة نظر الجامعـــة . وهناك قوانين أخرى فى هذا الصدد . مما دفع البابا أوربان الخامس (١٣٦٢-١٣٧٠م) عام ١٣٥٦م للتدخل ضـــد الجامعـــة لصالح الرهبان وأمر رئيس أساقفة كانتربرى ، والأساقفة بالإصرار على قيام المستشار بإلغاء ما أسماه القوانين المعيبة . فى الوقت الذى ناشدت فيه الجامعة والمؤسسات الدينية الأربعة الدومنيكان الفرنسيسكان ، الأوغسطنيين ، والرهـــبان البيض Carmelites . الملك والبرلمان للتدخل مما أسفر عن صدور مرسوم بموافقة البرلمان تم بمقتضاه تخفيف القيود على قبول الدارسين فى تلك المؤسسات . مع حظر كل المراسيم البابوية ، أو استئناف الدعاوى التى يرفعها الرهبان على الجامعة فى بلاط روما ، وإعلان بطلانها ، واستمرت العداوة على حالها ، ولعل المصدر الأساسى لشعبية كالفن Wyclif كان يتمثل فى إنكاره الشديد للرهبان المتسولين . وكان انهيارهم من أهم نتائج الحركة التى تزعمها ، إلى جانب أسباب أخرى . لمزيد من التفاصيل بصدد تطور هذا النزاع انظر :
Brodrick, op. cit., p. 53; Rashdall, op. cit., pp. 74, 75; Green, op. cit., pp. 138-142, Mallet, op. cit., pp. 75-76.

[2] كانتور ، المرجع نفسه ، ص ٤٩٢ .

الـــترجمة الجديـــدة الكاملة فى منتصف القرن الثالث عشر . وكانت هذه الترجمة بالطبع أكثر دقة من الترجمة اللاتينية المنقولة عن اللغة العربية[1] .

ومن الجدير بالذكر أنه عندما بدأت شروح ابن رشد لفلسفة أرسطو تتوفر بين أيدى المفكريـــن الغربييـــن فـــى النصف الثانى من القرن الثانى عشر، اكتشفوا أنهم ليسوا أول من تـــناول مشكلة العلاقة بين العلم والدين، لأن بعضاً من أعظم العقول فى العالم الإسلامى مثل ابـــن ســـينا وابن رشد كانوا قد تناولوا بالفعل نتائج الفكر الأرسطى على عقائدهم الأصلية . وكـــان على المفكرين المسيحيين فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر أن يختاروا بين رفض المذهـــب أو الفكـــر الأرسطى القائل بالفصل بين العلم والدين ، وبين محاولة إثبات الانسجام الـــنهائى بينهما . ولم يتورع الفيلسوف العربى المسلم ابن رشد عن الفصل بين عالم العلم كما يمـــثله أرســـطو وعالم الدين كما يمثله القرآن . وواجه التناقض بين العلم والدين بالاعتراف الصـــريح بوجـــود "حقيقة مزدوجة" . فهناك حقيقة واحدة للعلم ، وحقيقة أخرى للدين، وليس بمقدور العقل البشرى أن يوفق بينهما[2] .

ولعل العمل العظيم الذى صاغه توماس الاكوينى باسم خلاصة اللاهوت Summa Theologiae ، والـــذى حاول من خلاله إظهار التوافق أو المزج بين العلم والدين . وجعل الفكـــر الأرســـطى يتناغم مع حقائق الحياة المسيحية ، والبرهان على صحة العقيدة المسيحية بالفعل ، وأن الكشف عن الحقيقة يتدفق من خلال الكتاب المقدس والكنيسة ، بينما تنساب قوة العقـــل عبر قنوات الفلسفة وفكر أرسطو . بيد أن كل من العقل والكشف عن الحقيقة يستمدان مصـــدرهما مـــن الـــرب . وعلـــى حد تعبير المؤرخ الانجليزى ماليت Mallet أن خلاصة اللاهوت هى فى الحقيقة خلاصة الفلسفة Summa Philosphiae[3].

---

[1] من الجدير بالذكر أن الكسندر هاليس Alexander of Hales . والذى يعد من أوائل الأساتذة الفرنسيسكان العظام ، أول لاهوتى يبدى ترحيباً بالفلسفة الجديدة فى ثوبها العربى ، وكان انجليزياً لا يبارى فى بلاغته ، ومكث طويلاً فى مدارس باريس . ومن جهة أخرى فقد كان روبرت جروستيست أسقف لنكولن وعالم اللاهوت الشهير ، وآخرون للحصول على الـــترجمات الجديـــدة لمؤلفـــات أرسطو . ولا مراء أن الغزو اللاتينى والاستيلاء على القسطنطينية عام ١٢٠٤م جعل المصادر اليونانية أكثر شيوعاً . وأمست الترجمات المستقلة للمترجمين العرب لمؤلفات أرسطو فى الميتافيزيقا والأخلاق والسياسة متداولة . ولمزيد من التفاصيل انظر :

Mallet, op. cit., p. 77;

كالتور ، المرجع السابق ، ص ٤٩٢- ٤٩٤ .

[2] نفس المؤلف ، نفس المرجع ، ص ٤٩٥- ٤٩٨ .

[3] Mallet, op. cit., p. 80.

كالتور ، المرجع نفسه ، ص ٦٢٩ .

وإلـــى توماس الاكوينى يرجع الفضل فى تغيير الآراء بصدد الخلافات القديمة حول مشـــكلة الكلـــيات Universals أو الأفكار المجردة . فقد تمسك هذا الدومنيكانى العظيم بمبدأ الفردية القائم على أساس أن الفردية توجد فى الجوهر وليس الشكل[1] .

وعـــن صـــدى تأثـــير هـــذه الفلســـفة الأرسطية بهذه الشروح التى صاغها توماس الاكويـــنى، علـــى أروقة الدراسة فى مدارس أكسفورد ، وفى ضوء أن الأساتذة من الرهبان الدومنـــيكان ، كـــانوا يعـــتقدون منذ البداية أنه من الممكن التوفيق بين فلسفة أرسطو والفكر الكنسى الكاثوليكى. وكانوا بلا شك الأداة التى انتشرت بها فلسفة أرسطو على نطاق واسع فى انجلـــترا . وفـــى الوقت الذى أوصت فيه كلية الآداب فى باريس عام ١٢٥٤ بأن تصنف كل كـــتابات أرســـطو باعتـــبارها كتـــب مدرســـية Text Books ، وأن تكون فلسفته الطبيعية والميتافيزيقية هى "القاعدة الصائبة والمفيدة" ، نجد باتهام Patcham رئيس أساقفة كانتربرى، الـــذى ينتمى إلى الرهبان الفرنسيسكان ينكر صراحة ما أسماه البدع الدنيوية التى آتى بها هذا الدومنـــيكانى الكبـــير . أيضاً رئيس الأساقفة الذى جاء بعده ويدعى كيلوردباى Kilwardby بالـــرغم من انتماءه للرهبان الدومنيكان ، لم يتورع عن أن يدين صراحة هذه الآراء الفلسفية لـــتوماس أكويـــناس وفلسفة أرسطو برمتها أثناء زيارته لأكسفورد فى مارس عام ١٢٧٧م . ووافـــق الأســـاتذة فـــى أكسفورد على هذه الإدانة . بيد أن ذلك لم يمنع الدومنيكان والرهبان السيسترشـــيان والأوغسطينين الدارسين فى أكسفورد من تأييده وانتشار أفكاره . وتداول هذه الفلسفة التى سيطرت بالفعل على عقول الدارسين . ذلك أن الإغراء باكتشاف كنوز جديدة من العلـــم والمعـــرفة ، وســـحر وجاذبية هذه الفلسفة التى تحمل بصمة أكثر معلمى الماضى – أرسطو – تبجيلاً ومكانة برهن على أنه أقوى من أن يقاوم.[2]

---

[1] يذكر جون السالزبورى John of Salisbury الذى درس فى باريس بأن مدارس أكسفورد قبل تولى الملك هنرى الثانى الحكم مباشرة كانت مسرحاً لخلافات منطقية حول طبيعة الكليات . ويقصد بذلك هل المفاهيم العامة الكامنة فى أذهاننا مثل العدالـــة ، الحقيقة ، الجمال ، الكنيسة والدولة .. وغيرها لها وجود حقيقى خارج أذهاننا ؟ وهل المفاهيم الأكثر بساطة ، مـــثل شـــجرة ، حصان ، كرسى .. وغيرها لها وجود حقيقى خارج عقولنا أم مجرد تصورات عقلية خالصة . وانقسم العلمـــاء إلى قسمين القسم الأول الواقعيين أو المثاليين Realism من معتنقى فلسفة أفلاطون بأن الكليات هى أشياء لها وجودهـــا المســـتقل خارج نطاق العقل الإنسانى المفرد . والفريق الآخر عرف باسم الإسميين Nominalism بزعامة روســـيلين Rosselin أحـــد كبار الأساتذة البارزين فى المدارس الفرنسية وأعلن أن الكليات ليست أشياء ولكنها مجرد كلمات أو أسماء . لا تتمتع بأى وجود مستقل خارج نطاق العقل الإنسانى . حتى جاء أبيلارد وأظهر موقفاً معتدلاً بقوله أن الكليات ليست أشياء أو مصطلحات وإنما مفاهيم مفيدة ، ولكنها ليست حقيقية بالضرورة . ومن المؤكد أنه ألقى ظلالاً مـــن الشـــك حول حقيقة الدعم العقلى لتعاليم الدين من منطلق أن أفهم أولاً واقتنع ثانياً . ولمزيد من التفاصيل عن جون السالزبورى وتأثيره الفكرى انظر :

كانتور ، المرجع نفسه ، ص ص ٤٥٠ ، ٤٥٤ . وبصدد مشكلة الكليات انظر ص ٤٦٣ – ٤٦٦ ،

Brodrick, op. cit., p. 5, Mallet, op. cit., p. 80.

Lyte, op. cit., p. 25, Mallet, op. cit., pp. 77, 81; Rashdall, op. cit., p. 122.

لا مـــراء أن جامعة أكسفورد قد شهدت انطلاقة قوية فى عهد الملك هنرى الثالث (١٢١٦-١٢٧١م) . ففى ضوء أحداث الشغب التى اندلعت بين الدارسين وسكان مدينة باريس عـــام ١٢٢٩م ، والـــتى أســـفرت عـــن تشتت جامعة باريس ، وفى الوقت الذى اقتضت فيه الالـــتزامات القومية للمملكة ضرورة التأكيد على هيبة الملك باستعادة وانتزاع بقايا الممتلكات الإنجلـــيزية فى فرنسا من الطبيعى أن يجد الملك فى ذلك الحدث فرصة سانحة لإذلال الملكية الفرنســـية ، ووفقاً لرواية المؤرخ ماكسويل لويت وجه خطاباً رسمياً إلى أساتذة وطلبة باريس مبدياً تعاطفه معهم فى محنتهم ، والوعد بحريات وامتيازات جمة فى حالة حضورهم للدراسة فى انجلترا . وبدت تلك دعوة جذابة لاسيما للدارسين الانجليز فى باريس وأسفرت بالفعل عن حضـــور لفيف من الأساتذة والدارسين إلى المدارس الشهيرة على الضفة الأخرى لنهر التيمز سواء فى أكسفورد أو كمبريدج.[١]

وكـــان للـــتدفق المفاجئ لهؤلاء الدارسين الأجانب أثر سيئ على النظام فى الجامعة الناشـــئة ، فقـــد تحدى بعض الطلبة المستشار والأساتذة علناً . وعبر أحد المؤرخين على تلك الفـــئة المشاغبة من الدارسين بقوله "أن هؤلاء كانوا يعيشون بلا نظام ، ولم يكن لهم معلم إلا مـــن يعلمهـــم كـــل صنوف الشر" ، مما اضطر الملك هنرى الثالث للتدخل بعد أن ساد عدم الاكتراث بالقانون فى أكسفورد . وفى عام ١٣٣١م أصدر عدة مراسيم تهدف إلى تقوية سلطة المستشار ، بمنحه حق سجن الطلبة المشاغبين فى قلعة أكسفورد ، وأن يكون اطلاق سراحهم حسب إرادته ، ومعاملتهم وفقاً للقانون الكنسي . وأمر حاكم المقاطعة بأن يعلن أن أى دارس لا يكون تحت إشراف أحد الأساتذة فى المدارس لا يمكن اعتباره دارساً . ومن ثم يتحتم على ما أسماهم الدارسين المزيفين Pseudo-clerks مغادرة المدينة فى غضون أسبوعين[٢] .

وفـــى عام ١٢٣٨ وقع صدام بين الجامعة والمبعوث البابوى الكاردينال أوتو Otho المقيم فى دير أوزنى Oseney . ووفقاً لرواية المؤرخ متى الباريسى Matthew Paris ففى الثالـــث والعشـــرين مـــن أبريل من العام المذكور توجه فريق من الدارسين إلى الدير لتحية المبعوث البابوى ، بيد أنهم ردوا على أعقابهم بفظاظة من جانب الحارس Janitor . فى نفس الوقـــت ألقـــى رئـــيس طهاة المبعوث البابوى والذى كان شقيق المبعوث البابوى، إناءً مملوءً بالمـــاء الســـاخن فى وجه دارس أيرلندى فقير كان يستجدى الطعام على باب المطبخ . الأمر الـــذى أثـــار حنق الدارسين ، وقام أحد الدارسين من ويلز بتسديد قوس صوب رئيس الطهاة وأطلـــق عليه سهماً أرداه قتيلاً فى الحال . وحاول آخرون إشعال النار في البوابات الضخمة الموصـــدة أمـــامهم ، واتهام المبعوث البابوى بكل ما تجود به مفرادتهم من شتائم قائلين "أين

---

١ Matthew Paris's, English History from the Year 1235 to 1273, Trans from the Latin by Giles, London, 1852, vol. III, p. 149.

٢ Lyte, op. cit., p. 31.

ذلـــك المرابى، ذلك المتاجر بالدين ، هذا المسرف المبدد للإيرادات ، المتعطش للمال ، الذى يخـــدع الملـــك ، الذى يثرى الأجانب من المال الذى ينهبه منا"[1] . مما دفع المبعوث البابوى للفـــرار . وبإيعاذ من الملك تم إيداع عشرين أو ثلاثين من الدارسين بعضهم من أسر عريقة الســـجن فى قلعة ولنجفورد Wallingfords . وبناء علي طلب المبعوث البابوى تم نقلهم فى عـــربات مفـــتوحة مـــثل المجرميـــن إلى قلعة لندن مكبلين بالقيود الحديدية . وأعلنت عقوبة الحـــرمان الكنســـى علـــى كـــل المسئولين على أحداث الشغب ، ومنع المحاضرات وتوقفت الجامعة، ووضعت المدينة تحت طائلة عقوبة اللعنة الكنسية[2] . وأعلن المبعوث البابوى مهدداً أنـــه لـــن يعيد الجامعة إلى عطفه إلا إذا استجدى كل أعضاء الجامعة العفو منه علناً . وبناء على ذلك تجمعوا فى كاتدرائية القديس بولس St. Paul فى لندن ، وساروا بمصاحبة الأساقفة الذين ناصروا قضيتهم إلى حيث يقيم المبعوث البابوى فى مشهد درامى . وبعد خلع أرديتهم ، وعباءاتهم ، وأحذيتهم، وأحذيتهم رمزاً للندم ، قبل خضوعهم . وأصدر فى التاسع والعشرين مـــن مايو ١٢٣٨م مرسوماً تم بمقتضاه رفع عقوبة اللعنة ، واستئناف المحاضرات ، والعفو الشـــامل لجميع الدارسين . بيد أنه اشترط أن يدفع كل منهم مبلغاً من المال يعادل نفقة أسبوع لروح شقيقه.[3]

ويشهد عام ١٢٤٤ أول خطوة مهمة على طريق إعلاء سلطة وصلاحية المستشار ، ففى هذا العام اندلع حادث شغب مغايراً تماماً فى نوعه لأحداث الشغب التى كانت تموج دوماً بهـــا مديـــنة أكسفورد فى العصور الوسطى . فقد قام الدارسون بهدف الانتقام لبعض أعمال الابـــتزاز مـــن جانـــب الـــيهود بمهاجمة حى اليهود بالمدينة ، ونهبوا بيوت دائنيهم العامرة بالخـــيرات ، وأســـفر ذلـــك عن إيداع خمسة وأربعين من الدارسين السجن . وأصدر الملك مرســـوماً لصـــالح الجامعة يقضى بحق المستشار فى الانفراد بحسم كل المنازعات التى تثار بصـــدد إيجـــارات البيوت التى يقيم بها الدارسين ، سعر الخيول ، المؤن ، الملابس ، وجميع العقود الخاصة بالمنقولات والتى يكون أحد الدارسين طرفاً فيها.[4]

---

[1] Matthew Paris's, op. cit., vol. I, pp. 126, 127; The Chronicles of the Reigns of Edward I and Edward II, vol. I, p. 35, Mallet, op. cit., p. 36, Rashdall, op. cit., p. 88.

[2] Matthew Paris's, op. cit., vol. I, p. 128.

[3] نستطيع أن أقول أن هذه الأحداث التى جرت وقائعها بين الدارسين والمبعوث البابوى فى أكسفورد جاءت انعكاساً أيضاً لموجة عارمة من الأستياء عمت الأوساط السياسية والكنسية ضد الابتزازات المالية للبابوية ، والتى بلغت ذروتها فى عهد الملك هنرى الثالث . وكان المبعوث البابوى مدركاً لذلك ، الأمر الذى جعله من شقيقه رئيساً للطهاه له خوفاً من دس السم .. انظر :

Matthew Paris's, vol. I, p. 128, Mallet, op. cit., p. 36.

[4] Roberti Crosseteste . op.cit.,pp.lvii ,lviii ; The Chronicles of the Reigns of Edward I.and Edward II ,vol.I ,p.71 ; Lyte ,op.cit., p.42 ; Mallet , op.cit.,p.38 ; Rashdall , op.cit. , p.85.

واســـتحق هـــذا المرســـوم الذى تم تأكيده وتجديده من جانب عدد كبير من الملوك الانجلـــيز أن ينعت باسم العهد الأعظم أو ماجنا كارتا Magna Carta الجامعة . لأنه تضمن الـــنواة الأولى لمعظم الامتيازات اللاحقة للجامعة . وأضفى على المستشار سلطة لا يستطيع أى مبعوث بابوى أو أسقف منحها أو إلغائها[1] .

وفى عام ١٢٤٥ وضع البابا أنوسنت الرابع (١٢٤٣-١٢٥٤م) الجامعة تحت حمايته الخاصـــة مؤكداً ضمان امتيازاتها المختلفة . وأصدر مرسوماً وعد فيه بعدم استدعاء الأساتذة والدارســـين فى أكسفورد للمحاكمة خارج المدينة بواسطة الأسقفية المقدسة أو مبعوثيها بسبب أى اتفاقيات تبرم داخل المدينة[2] .

وتـــتأكد امتيازات الجامعة عام ١٢٥١ م نتيجة للنزاع بين الدارسين وأبناء المدينة ، الـــذى أسفر عن إيداع اثنين من الدارسين السجن ، وأغلقت المدارس مرة أخرى . لذا ناشدت الجامعـــة الملك هنرى الثالث الذى جاء إلى أكسفورد فى أوائل فبراير عام ١٢٥١م ، بأنه من الآن فصاعداً يجب نقل كل الدارسين المقبوض عليهم من قبل السلطة المدنية إلى الحبس تحت رعايـــة المستشار . وأبدى الملك وعداً بتسليم الدارسين الذين يتم القبض عليهم فى منازعات طفـــيفة إلـــى المستشـــار ، الذى يستطيع بصفته نائباً لأسقف لنكولن فى المدارس أن يفرض العقوبـــة ، ولكـــنه احتفظ للأسقف أو نائبه الذى تعينه خصيصاً لذلك ، بالسلطة الوحيدة على الدارســـين المتهمين بجرائم خطيرة . بيد أن أعضاء الجامعة عبروا صراحة عن عدم رضاهم بهـــذه التســـوية . وأبدى الملك من جانبه حزماً صارماً بهذا الصدد . وعندما تم إلقاء القبض علـــى ثلاثة من الدارسين بعد ذلك بوقت قصير ، أمر الملك بضرورة تسليمهم للمستشار لكى تتم محاكمتهم طبقاً لتقاليد الجامعة إذا لم تكن الجروح قاتلة.[3]

وتـــتوالى امتـــيازات الجامعة فى القرن الثالث عشر ، فقد حظيت الجامعة بامتيازات أخـــرى عـــام ١٢٥٥م على حساب حريات المدينة . فقد أمر الملك بتعيين أربعة من حكماء المديـــنة ، وثمانية من أبناء المدينة لمساعدة حاكم المقاطعة والنواب فى مراعاة النظام . وأن يصـــبح كـــل مالك بيت مسئولاً عن أى شخص يقيم تحت سقف منزله أكثر من ثلاث ليال . وصـــدرت الأوامر لتجار الخمور ببيع النبيذ للدارسين وأبناء المدينة بنفس الأسعار . كما منع تجـــار الـــتجزئة مـــن اعتراض المؤن الواردة للأسواق أو شرائها بعد بيعها مرة أخرى قبل الســـاعة التاســـعة صباحاً ، كما صدر مرسوماً يقضى بعدم صلاحية التحليل نصف السنوى للخـــبز والبـــيرة إلا إذا تم فى حضور مستشار الجامعة أو نائبه[4] . ونظراً لأن تعاطى الطلبة

---

١ Lyte, op. cit., p. 42.

٢ Munimenta Academica, (ed.) by Anstey, in (Rolls Series) London, 1868, pp. 26-28; Lyte, op. cit., p. 45.

٣ Brodrick, op. cit., p. 14; Lyte, op. cit., p. 45; Rashdall, op. cit., p. 85.

٤ Lyte, op. cit., p. 46.

للخمور يعتبر مصدراً دائماً للمتاعب ، وكان نصف أبناء أكسفورد يخمرون النبيذ ويبيعونه ، كمـــا كـــان الشراب جزءاً من أى احتفال أكاديمى ، لذا كان من الطبيعى أن يكون المستشار ملـــزماً مـــن الـــتأكد بـــأن أصحاب الحانات فى أكسفورد يحافظون على جودة الخمور التى يبـــيعونها. بـــيد أن ذلـــك لـــم يمنعهم من صنع الخمور من مياه الجداول ، التى تصب فيها المجـــارى، وتصـــبح شوارع المدينة مسرحاً لشجار نتيجة لذلك . بيد أن أهم ما تضمنه عهد ١٢٥٥م أنه منح مستشار الجامعة حق استلام الدارسين المعتقلين فى سجن القلعة بسبب جرائم خطـــيرة ، وعقاب العلمانيين من سكان المدينة باعتقالهم إذا ألحقوا ضرراً بالدارسين حتى يتم تقديم التعويض الذى يراه الطرف المتضرر والمستشار والجامعة ملائماً[1] .

وفـــى عـــام ١٢٥٦م أقر الملك بضرورة أن يتم تقدير إيجار المنازل والغرف التى يســـكنها الدارسون والمؤجرة من سكان المدينة ، بواسطة لجنة مشتركة من الدارسين وأبناء المدينة مرة كل خمس سنوات بدلاً من كل عشر سنوات[2] .

لا مـــراء أن هـــذه الأحداث والتطورات إنما تؤكد أن جامعة أكسفورد التى حظيت بتأييد الملك ، والبابا وأسقف لنكولن على السواء ، غدت تحتل مكانة مرموقة فى عيون العالم فـــى منتصـــف القـــرن الثالـــث عشر ، والتى يتحدث عنها المؤرخ متى الباريسى باعتبارها المدرسة الثانية للكنيسة . ولتلك التسمية قصة .

فـــى عـــام ١٢٥٧ م أظهـــر هـــنرى ليكسنجتون Henry Lexington الذى خلف روبرت جروستيست فى منصب أسقف لنكولن ، ميولاً غير ودية تجاه الدارسين فى أكسفورد، وتوجـــه تســـعة مـــن معلمى الآداب لمقابلة الملك فى دير القديس البانز St. Albans لتقديم شـــكوى ضد ما اعتبروه اعتداء الأسقف على حريات الجامعة[3] . وعقد المؤرخ متى الباريسى الـــذى كـــان آنذاك راهباً فى دير القديس البانز لقاء مع الملك ، وناصر قضيتهم بحماس وقال مخاطـــباً الملـــك : "ســـيدى ، باسم الاله اهتم بالكنيسة المتداعية بالفعل ، لأن جامعة باريس مدرســـة كثيريـــن مـــن الأساقفة أصابها صدع عظيم ، وإذا تعرضت جامعة أكسفورد وهى

---

[1] Lyte, op. cit., p. 46; Mallet, op. cit., p. 153.

[2] Lyte, op. cit., p. 45.

[3] كانت جامعة أكسفورد فى هذه المرحلة قد بدأت فى صياغة أعرافها غير المكتوبة إلى قوانين مكتوبة . وكان النزاع يدور حـــول هـــل يحـــق للجامعة إدارة أمورها بنفسها أم من خلال أسقف لنكولن ؟ ولأن الأساتذة كانوا يحاضرون بمقتضى الترخيص الذى يمنحه المستشار . فقد اعتبر الأسقف الجديد ذلك انتهاكاً لحقه الخاص ، مستنداً فى ذلك على أنه بناء على التماس سلفه روبرت جروستيست أعلن البابا أنوسنت الرابع مرسوماً يقضى بأن لا يسمح لأحد بالتدريس فى أى تخصص مـــا لم يخضع للاختبار والموافقة من جانب الأسقف أو نائبه . وهذا القرار يبرهن بوضوح على أن مستشار الجامعة ما زال يعتبر نائب للأسقفية . وبالرغم من أن المستشار يعتبر من الناحية النظرية نائباً للأسقف ، بيد أنه باعتباره أستاذاً فى اللاهوت والقانون الكنسى بالجامعة كان دوماً معبراً عن مصالح الجامعة . وسلطته تعنى فى المدى البعيد سلطة الجامعة . وبمرور الوقت فإن دمج السلطة الأكاديمية والكنسية ، المدنية والجنائية فى أيدى مستشار مدارس أكسفورد لم يحدث أن حصل عليها رئيس أى جامعة أخرى باستثناء جامعة كمبريدج . انظر ذلك فى :
Rashdall, op. cit., pp. 45, 116, 117; Lyte, op. cit., pp. 39, 40.

المدرســـة الثانية للكنيسة ، وربما تكون أساس الكنيسة ذاته لنفس الصدع والاضطراب ، فإننا نخشى أن تنهار الكنيسة كلها".[1]

وبــناء علـــى ذلــك صـــدرت الأوامر للمبعوثين من مدارس أكسفورد بالمثول أمام المجلــس الكبــير للملك ، والذى اصطلح المؤرخون على تسميته بالبرلمان ، والذى كان على وشــك الانعقــاد فـــى ويسمنيســتر . وربما كانت نقطة الخلاف الأساسية بين أسقف لنكولن والجامعة ، أن الأسقف من منطلق تأكيد سلطته على الجامعة حاول منع المستشار من فرض عقوبـــة روحـــية بدون الحصول على إذن خاص منه . بيد أنه تم إقرار سلطة المستشار عام ١٢٦٢م بحقـــه بإصـــدار عقوبة الحرمان الكنسى ضد نواب المدينة ، فى حالة تجاوز سلطته باحتجاز الدارسين المتهمين فى سجن المدينة.[2]

وبالرغم من مؤازرة التاج للجامعة لم تلبث أن تعارضت حقوق المستشار مع حقوق الـــتاج حـــول حسم القضايا التى تحدث بين اليهود والدارسين ، مع الأخذ فى الاعتبار أنه قبل إنشـــاء صندوق دير القديسة فرايدزوايد بمقتضى مرسوم البابا عام ١٢١٤ – والمشار إليه آنفاً – وغـــيره من الصناديق لتقديم القروض للدارسين الفقراء ، كان اليهود هم الفئة الوحيدة التى تقدم القروض فى مدينة أكسفورد وكانت لهم تعاملات ضخمة مع الدارسين خلال حكم هنرى الثالـــث[3] . ولـــم يكـــن القانون الكنسى المناهض للربا ينطبق على أعضاء الطائفة اليهودية . وكانـــت القضايا التى تنشب بينهم وبين المسيحيين تحال إلى محكمة مختلطة[4] . ورغم تحديد سعر الفائدة من جانب الملك بمقدار بنسين عن كل جنيه فإن الخلافات الكثيرة كانت تطفو على السطح بين الدائنين اليهود والمدنيين المسيحيين ، واللجوء لمستشار الجامعة للبت فيها . وفى عام ١٢٦٠م أخذ رئيس شرطة قلعة أكسفورد على عاتقه إثارة موضوع سلطة المستشار على الـــيهود ، مدعياً أنهم لا يشكلون جزء من المجتمع العادى للمدينة . وأحال الملك الأمر برمته إلـــى لجـــنة مـــن المحلفين من سكان المدينة ، جاء قرارها رغم العداء بين المدينة والجامعة لصـــالح سلطة المستشار بموافقة كاملة من الملك ، بحق المستشار إقرار السلام بين الطرفين

---

[1] يذكـــر المـــؤرخ ماثيو الباريسى فى ثنايا حديثه عن مكانة أكسفورد فى القرن الثالث عشر ، بأنه فى عام ١٢٥٢م عرض بونـــيفاس رئيس أساقفة كانتر برى شكواه ضد أسقف وينشيستر أمام الجامعة "لكى يعلن ذلك الخطأ الذى ارتكبه الأسقف علـــى حشـــود الدارسين المجتمعين هناك للدراسة من أنحاء متفرقة من العالم ، لكى تعرف الأمم البعيدة بذلك الخطأ من حكايات الدارسين . وحضر إليه جمع غفير من الدارسين ، قابلوه بالترحاب باعتباره رئيساً للأساقفة ، وقدموا له كميات كبيرة من اللحم والشراب لطعامه ، وعندما لاحظ رئيس الأساقفة وحاشيته كرم ضيافتهم ، وفخامة مظهرهم ، وولائهم ، وجاذبية شخصياتهم ، اضطروا للاعتراف بأن جامعة أكسفورد جديرة بأن تصنف باعتبارها منافساً لجامعة باريس" انظر:
Matthew Paris, Chronica Majora, ed. Lusrd, Rolls Series, London, 1884; vol. IV, pp. 265, 353; vol. V, p. 618; Lyte, op. cit., p. 58.

[2] Loc. cit.

[3] Loc. cit.

[4] Stubbs, The Constitutional History of England, Oxford, 1873, vol. II, p. 530.

وتطبـــيق العمل السريع على أى منهما[1] . ويبدو من وجهة نظر الباحث أن قرار أبناء المدينة بالثناء على المستشار إنما كان بدافع الرغبة من جانبهم فى إذلال اليهود ، لأنهم بقدر ما كانوا يكرهون الدارسين ، فإن كراهيتهم لليهود كانت أشد وأقوى .

وللوقـــوف علـــى أسباب المنازعات التى كانت تندلع دوماً فى أكسفورد بين الجامعة وتحديـــداً الدارسين وسكان المدينة ، يجب أن يؤخذ فى الاعتبار أن الجامعة فى النصف الأول من القرن الثالث عشر وحتى القرن الخامس عشر لم يكن لها أبنية خاصة بها أو ممتلكات من أى نـــوع . فـــالمدارس الـــتى كانت تلقى فيها المحاضرات والغرف التى يسكنها الطلبة كانت جمـــيعها مســـتأجرة من سكان المدينة . وكان العمل الأكاديمى يتم فى الكنائس الأبروشية أو الديـــرية المستأجرة لهذا الغرض . وكان لفقر الجامعة فى هذه المرحلة ميزة تعويضية ، لأنه تـــرك للجامعـــة حرية الاستقرار فى المكان الذى تريده . وطالما أصبح العامل المادى عديم الجـــدوى ، حينـــئذ يكـــون باستطاعة الدارسين مغادرة أكسفورد وحينئذ ينطوى رحيلهم على خســـارة ماديـــة لسكان المدينة ويمثل فشلاً زريعاً لكل من الكنيسة والملكية . وإذا كان البابا جـــريجورى التاسع (١٢٢٧-١٢٤١م) تصريحاً رسمياً للأساتذة فى باريس بالتوقف عن إلقاء المحاضـــرات عـــندما تـــتعرض حريات الجامعة للخطر . ففى أكسفورد كان القلق العام فى المـــدارس يفهـــم علـــى أنـــه يعنى أن الدارسين يمكن أن يتفرقوا إذا لم تلق شكواهم الاهتمام العـــاجل. ومـــن ثـــم فـــإن الـــتهديد بمغادرة أكسفورد وإغلاق المدارس يصبح السلاح الذى يســـتطيعون إشـــهاره فى وجه سكان المدينة[2] ، لاسيما وأن أكسفورد على حد تعبير المؤرخ ماليـــت الوحـــيدة بين مدن انجلترا فى العصور الوسطى التى تضمنت مركزين يبدو وكأنهما يتمـــتعان بالحكم الذاتى Self-governing أى الجامعة والمدينة . وفى الوقت الذى كانت فيه نقابة التجار قادرة على حماية حريتها وإقرار حقوقها ضد الدارسين كانت الجامعة تحتاج دوماً إلى حماية التاج.[3]

وفـــى أثـــناء الـــنزاع الشهير بين هنرى الثالث والبارونات الثائرين بزعامة الأيرل ســـيمون مونـــتفورت ، أبـــدت الجامعة تعاطفاً مع البارونات المعاديين للملك ، ولم تمانع فى مـــنحهم قرضـــاً اســـتهلك جزء كبيراً من النقود التى أوصى بها وليم درهام لمعلمى الآداب الفقـــراء. حينئذ أمر هنرى الثالث كل الدارسين مغادرة أكسفورد . وانضم عدد كبير منهم إلى الـــبارونات . وغامـــر الملـــك باقتحام أكسفورد ، وأقسم تحت وطأة الغضب من الدمار الذى ألحقـــوه برجاله ، بأنه سوف يشنقهم جميعاً فور الاستيلاء على المدينة . بيد أن الملك لم ينفذ تهديده بناءً على استنكار أتباعه ، مخافة أن يؤدى ذلك إلى فقدان كل النبلاء والأتباع المؤيدين

---

١ Lyte, op. cit., pp. 58-59.
٢ Ibid; p. 41.
٣ Mallet, op. cit., pp. 39-40.

لـــه ، فمـــن لهـــم أبناء وأقارب بين الدارسين . وبعد شهر واحد من وقوع الملك وولى عهده الأمـــير إدوارد فـــى الأسر على يد الأول فى معركة لويس Lewes بمقاطعة سكس ، والتى أدت إلـــى قلب أوضاع الأطراف المتحاربة رأساً على عقب ، أصدر الأيرل المنتصر مراسيم باسم الملك يأمر بعودة الدارسين المشتتين إلى أكسفورد[1] .

ونســـتطيع تفســـير هذا الموقف العدائى للجامعة تجاه الملك رغم انحيازه لها وإعلاء شأنها فى عهده فى ضوء حقيقة أن الجامعة لم تكن بمنأى عن حالة الاستياء العام فى المملكة نتيجة تردى الأوضاع السياسية داخلياً وخارجياً فى عهد هنرى الثالث ، وربما إيمانهم بعدالة المطالـــب البارونـــية والتى قدمها الأيرل الثائر فى اجتماع المجلس الكبير الذى عقد فى مدينة أكسفورد عام ١٢٥٨ والتى عرفت فى التاريخ الانجليزى بشروط أكسفورد[2] .

علـــى أية حال ، فقد حظى النصف الثانى من القرن الثالث عشر بأهمية خاصة فى تـــاريخ تطور جامعة أكسفورد ، بظهور ما اصطلح على تسميته الكليات Colleges ، وهى مؤسســـات خيرية ذات هدف تعليمى لإعالة الدارسين الفقراء . وخلال فترة العصور الوسطى كانت الغالبية العظمى من الدارسين العلمانيين يقيمون إما فى غرف مستأجرة من أبناء المدينة أو فى قاعات Halls مع الأخذ فى الاعتبار أن منع الدارسين من الإقامة فى بيوت الأهالى لم يـــتم الغاءه إلا فى عهد الملك هنرى الخامس (١٤١٣-١٤٢٢م)[3] . ومن الجدير بالذكر أيضاً أن الـــدارس الثرى الذى ينتمى لأسرة عريقة يستطيع أن يأخذ مسكناً خاصاً به . فى حين أن الدارس الذى يعانى الفاقة يقيم فى حجرة منفردة مهملة أعلى البيت . ومن ثم نجد أن الدارسين الذيـــن يجدون مشقة فى دفع تكاليف المعيشة لا يرون ثمة مهانة فى قبول المساعدة من رجل ثـــرى ، حيـــث نجد الكثير من الدارسين يدينون بالفعل إلى كاهن أو أحد النبلاء بالتعليم الذى يهيـــئ لهم البداية الأولى للحياة . ولا مراء أن فكرة الكفالة على أساس دائم للإقامة فى بيوت بمـــا فـــيها الأكل والإقامة للدارسين الفقراء كانت بدون شك الدافع الرئيسى الذى أدى لظهور فكرة الكليات[4] .

وتـــبدأ الجـــذور التاريخية لنظام الكليات فى تاريخ أكسفورد الباكر بعدد من الملوك والنـــبلاء والأســـاقفة يدفعون نفقات تعليم الطلبة الفقراء الذين ولدوا فى ضياعهم الإقطاعية . وكان الأغنياء المتحمسين للتعليم يقررون إعالة عدد من الدارسين فى الجامعة ، وتوفير إقامة خاصـــة لهـــم ، ووضع القواعد لضبط سلوكهم ، فى عصر يعتبر التبرع أو الهبة Chantry بهـــدف إعالـــة دارس أو أكـــثر من الأعمال النبيلة وتعبيرا عن التقوى والورع فى العصور

---

[1] Lyte, op. cit., pp. 65-66; Mallet, op. cit., pp. 52-53.

[2] ولمزيد من التفاصيل عن النزاع بين هنرى الثالث والبارونات انظر :
زينب عبد المجيد ، المرجع السابق ، ص ١٨٨- ١٨٩ .

[3] Rashdall, op. cit., p. 175.

[4] Rashdall, op. cit., p. 175; Mallet, op. cit., p. 84.

الوسطى[1] . ولعل أصدق مثال على ذلك ما قام به أحد الأثرياء ويدعى الآن باسيت Alan Basset ، حيث أوصى بمبلغ مائتى مارك تؤخذ من ضيعته ، تدفع بمعدل ثمان ماركات سنوياً لاثنين من القساوسة الذين يتولون إقامة القداس يومياً لروحه وروح زوجته ، وأيضاً للدراسة فى مدارس أكسفورد أو أى مكان آخر . ويجب الاعتراف بفضل آلان باسيت باعتباره أول من أقدم على وقف بعض المال للإنفاق على دارس فى أكسفورد [2] .

وفى عام ١٢٤٩ م أوصى وليام درهام William of Durham أحد أساتذة باريس البارزين بمبلغ ثلاثمائة وعشرة مارك لجامعة أكسفورد ، بهدف إعالة عشرة أو أكثر من معلمى الآداب من أبناء كونتية درهام فى منازل يتم توفيرها فى أكسفورد من هذا المال . وقد وضعت الجامعة هذه الأموال فى خزينة عرفت باسم صندوق وليم وليام درهام . أنفقت بعضاً منه فى منح قروض بدون فائدة للدارسين . وفى أثناء النزاع البارونى الشهير فى عهد هنرى الثالث اقترض البارونات الذين جاءوا لحضور اجتماع عام ١٢٦٤م[3] ، مبالغ ضخمة من ذلك الصندوق ، وفى ضوء ذلك لا يمكن اعتبار وليم درهام مؤسس لأقدم كلية فى أكسفورد ، لأنه لم يهدف أن يكون المتلقين لصدقاته فى شكل جماعة منظمة تتمتع بحقوق عامة . مع الأخذ فى الاعتبار أن لفظ كلية Collegium هو المرادف اللاتينى للكلمة التى تستخدم الآن بمعنى هيئة أو مؤسسة Corporation . ومن ثم فإن ما قام به وليم درهام عبارة عن منحة مالية Exhibition-fund تدار بواسطة الجامعة[4] .

ومن الجدير بالذكر أنه بالإضافة للمال الذى أوصى به وليم درهام ، وأموال أخرى من متبرعين آخرين ، تم فى عام ١٢٨٠م إنشاء ما يعرف باسم كلية الجامعة University College والتى عرفت آنذاك باسم الدار الكبرى للجامعة "Gtreat University Hall" عبارة عن مجموعة صغيرة مكونة من أربعة من المعلمين غير القادرين على العيش بمستوى رفيع مع دارسين آخرين ، ويتم اختيارهم بواسطة المستشار ومعلمى اللاهوت . وكانوا جميعاً مطالبين بدراسة اللاهوت ، ولأن الجامعة لم تعتزم أن يشكل هؤلاء الدارسون مؤسسة مستقلة عن الجامعة ، فقد كان مسموحاً لهم فقط بقدر محدود فى إدارة شئونهم . ويعين الزميل الأكبر سناً The Senior Fellow رئيساً Head . وكانت السلطة الفعلية كلية فى يد المستشار والأساتذة الممارسين Regent Masters فى اللاهوت . وحصل الدارسون المقيمين بها على مخصص سنوى مقداره خمسين شلنا لكل منهم سنوياً . وصدرت القوانين المنظمة للمقيمين بها وفقاً لقواعد صارمة عام ١٢٩٢ م . بيد أن مصطلح كلية لم يخرج إلى حيز الوجود إلا

---

١ Rashdall, op. cit., p. 175.

٢ Mallet, op. cit., p. 84; Rashdall, op. cit., p. 175.

٣ Brodrick, op. cit., p. 17; Lyte, op. cit., pp. 10, 71, Mallet, op. cit., p. 84

٤ Munimenta Academica, pp. 780-783; Lyte, op. cit., p. 87.

عـــام ١٢٨٠م ، لأن القوانيـــن الـــباكرة التى أعدت من خلال الجامعة لإنشاء هذه المؤسسة صدرت فى هذا العام[١] .

وفـــى عـــام ١٢٦٠م خصص جون باليول John Balliol الذى يعد واحداً من أكثر بارونـــات الشمال قوة وثراء ، مبلغا من المال للإعالة الدائمة للدارسين الفقراء فى أكسفورد . وبعـــد وفاتـــه زادت زوجته الأميرة الاسكتلندية ديرفورجيلا Dervorguilla من قيمة المنح الماليـــة بمـــا يكفـــى لإعالة ستة عشر دارساً بمرتب سنوى يقدر بسبعة وعشرين ماركاً لكل دارس. بيد أن مؤسسة باليول خصصت لدارسى الآداب فقط ، الذين بعد حصولهم على درجة الماجســـتير فـــى الآداب M.A لا يســـمح لهـــم بالاستمرار وبالتالى ترك أماكنهم . وهؤلاء الدارسون تحت إشراف رئيس Principal كانوا يقومون بانتخابه.[٢]

ونظراً لأن المؤسس الأصلى قد أغفل أن يضع كليته أى مؤسسته تحت رعاية زائر حيـــث مـــن المعتاد أن يكون أسقف لنكولن هو الزائر Visitor . كذا وبمقتضى قوانين عام ١٣٤٠م قسمت سلطة الزائر بين مستشار الجامعة وأسقف درهام واثنين من المدرسين . ولكن بمقتضـــى قـــانون تم إعداده تحت إشراف السلطة البابوية بواسطة سيمون سدبرى Simon Sudbury أســـقف لندن عام ١٣٦٤م . جعل أسقف لندن زائر . ومن جهة أخرى فقد منحت القوانين البابوية الجديدة الكلية امتيازاً فريداً بعدئذ بحقها فى انتخاب زائرها.[٣]

وفـــى نفـــس الوقـــت أســـس وولـــتر مرتون Walter Merton أسقف روشيستر Rochester مؤسسة تعليمية أى كلية ، من خلال تخصيص ريع ضياعه الإقطاعية فى مالدن Malden لإعالـــة أحـــد عشر دارساً من الحاصلين على درجة الليسانس فى الآداب للحصول علـــى درجة الماجستير ، بدخل سنوى يقدر بأربعين شلن لكل منهم . وانطلاقاً من تقديره التام للنهضـــة الفكـــرية فى عصره وعدم استعداده لرؤية سيطرة المؤسسات الدينية على مؤسسته حيث المبشرين المتحمسين لخدمة الهيمنة والسيادة البابوية ، أنشأ مؤسسته بهدف تعليم رجال

---

[١] فى ضوء قوانين عام ١٢٩٢م ، ونظراً لقلة عدد الدارسين بكلية أوردار الجامعة ، تم اتخاذ إجراء يتم بمقتضاه قبول دارسين آخرين من ذوى الأخلاق الطيبة للإقامة والسكن ولكن على نفقتهم الخاصة وعرف هؤلاء باسم العامة Commoners . أى الدارســـين غير الأعضاء الأساسيين فى المؤسسة . وتم إنشاء مكتبة واستعارة الكتب وفقاً لشروط صارمة . وكانت اللغة اللاتينية هى لغة الحديث اليومى والعيش كدارسين وفقاً لأسلوب القديسين . وعدم الشجار أو استخدام الألفاظ البذيئة . وفرض نظام تدريجى للعقاب بمعنى أن من يهين زميله سراً تفرض عليه غرامة شلن ، وإذا كانت الإهانة أمام الزملاء تكـــون شـــلنين . وإذا حدثت الإهانة فى الشارع أو الكنيسة أو فى مكان للترفيه تكون الغرامة ستة شلن وثمانية دينار . وبمقتضـــى القوانيـــن التكميلـــية الصادرة عام ١٣١١م سمح للدارسين بملأ الأماكن الشاغرة فى مؤسستهم . وللزملاء Fellows أى المعلميـــن الأربعة حق التصويت بصدد انتخاب الزملاء الآخرين فى المستقبل . بيد أن المستشار ومعلمى اللاهوت ومراقبى الجامعة لهم حق رفض الأشخاص المنتخبين . لمزيد من التفاصيل بصدد هذه القوانين انظر :
Munimenta Academica, vol. II, pp. 56-61; Lyte, op. cit., pp. 82-84; Brodricke, op. cit., p. 17; Mallet, op. cit., pp. 87-89.

[٢] Rashdall, op. cit., p. 181; Brodrick, op. cit., p. 17; Lyte, op. cit., p. 71; Mallet, op. cit., pp. 97-98.

[٣] Rashdall, op. cit., p. 182; Mallet, op. cit., pp. 102,104.

الديـــن العلمانيين ، لإعداد مجموعة من الرجال القادرين على إسداء عمل جيد للكنيسة والدولة علـــى الســـواء . وتجسيداً لذلك أصدر تشريعاً يحث دارسيه جميعاً على دراسة الفنون الحرة والفلسفة قبل الإقدام على دراسة اللاهوت[1] .

ومـــن الجديـــر بالذكر أن الدارسين فيكلية مرتون كانوا خاضعين لإشراف مراقب Warden ، الـــذى كان اختياره يقع على عاتق أقدم سبع دارسين ، ومن الممكن اختياره من بيـــنهم إذا أرادوا ذلـــك . بيد أنه كان يتم إبعاده حسب إرادة أسقف وينشيستر . ومن المقرر زيـــادة عدد الدارسين تبعاً لزيادة الإيراد . وكانوا ملزمين باجتياز المقرر العادى فى الآداب ، والانـــتقال بعده لدراسة اللاهوت . وللمراقب حق منح الترخيص لأربعة أو خمسة من الطلبة الممتازيـــن من المقيمين بالمؤسسة لدراسة القانون الكنسى أو المدنى . ويبدو أن الطلبة الأكبر ســـناً كانوا يعملون كمعلمين للأصغر سناً والذين كانوا تحت رعاية معلم النحو المقيم . وعند مخاطـــبة بعضـــهم بعضاً يستخدمون تعبير زميل Fellow . بيد أن هذه الكلمة لم تكن تعنى المعـــنى الحـــرفى الذى تدل عليه الآن . وإنما استخدمت بواسطة روبرت مرتون تعبيراً عن روح المســـاواة والصـــداقة التى يجب أن تسود بين متلقى هباته . وكان انجاز العمل الإدارى مـــنوطاً بعدد كبير من الدارسين المقيمين بالمؤسسة أمكن توظيفهم لإدارة شئون الكلية . يعمل ثلاثـــة مـــنهم أمناء للخزانة ، وخمسة آخرون لمراجعة الحسابات . والأكبر سناً فى كل قاعة dormitory يسمى عميد Dean . ويكون مسئولاً عن حسن سلوك وعمل الساكنين الآخرين. وفى عام ١٢٧٦م أصبح الزائر رئيس أساقفة كانتربرى[2] .

وكـــان يتم قبول الأولاد الفقراء من أقارب المؤسس بشرط ألا يزيد العدد على ثلاثة عشر ، وبرر مرتون الإحسان الذى أسبغه على أقاربه بأنهم كانوا سيحصلون على ممتلكاتهم بالقانون لأنه حرمهم من الميراث بمنح ممتلكاته لمؤسسة تعليمية[3] .

ومن الجدير بالذكر أن الدارسين الأوائل فى كليات الجامعة ، باليول ، ومرتون كانوا يعيشـــون فـــى غرف منعزلة وحجرات عارية مكشوفة مكونة من طوابق من الطين . وكانوا يعانون دائماً من البرد . وحتى عهد أسرة ثيودور (١٤٨٥-١٦٣٥م) لم تكن الطوابق الخشبية والحوائـــط المكســـوة بالخشب ، والأسقف المغطاة بالجص قد بدأت بعد . وحتى عهد الملكة اليزابيث الأولى لم تكن التدفئة أو مفروشات الأسرة وفيرة . وبدأ بعدئذ تشييد أعداد هائلة من المداخن. وأصبحت الوسائد والمخدات شائعة الاستعمال[4] .

---

١ Lyte, op. cit., pp. 72, 73; Brodrick, pp. 17, 18; Mallet, op. cit., pp. 113-116.

٢ Lyte, op. cit., pp. 73-80; Brodrick, op. cit., pp. 18-20; Rashdall, op. cit., p. 196.

٣ Lyte, op. cit., p. 80.

٤ Mallet, op. cit., p. 87.

لا مـــراء أن تأسيس ما اصطلح المؤرخون القدامى والمحدثون على تسميته بالكليات فـــى ضوء هذه الكليات الثلاث الباكرة يمثل حدثاً مهماً فى التاريخ الأكاديمى لجامعة أكسفورد فى القرن الثالث عشر.[1]

وبانـــتهاء الحرب البارونية وتأسيس هذه الكليات الباكرة بدأت فترة جديدة فى تاريخ ازدهـــار الجامعة واحتلت أكسفورد مكانتها بجانب باريس بين أشهر مراكز التعليم فى الغرب الأوروبـــى وأصبح رجال التعليم فى أكسفورد زعماء للفكر الأوروبى . ويذكر فى هذا الصدد أن دانتى Dante استمع إلى المحاضرات فى أكسفورد وتجول فى شوارعها[2] . وتتأكد مكانة أكســـفورد بحلـــول القرن الرابع عشر ، وتزداد توهجاً فى أعين أوروبا نتيجة لتدهور جامعة بـــاريس ، واحـــتجاج رجال التعليم فى أكسفورد بشدة على الاستبداد الروحى للبابوية ، التى أنحـــط شـــأنها وباتت أسيرة لنفوذ وتأثير الملكية الفرنسية فى أفينون Avignon زهاء ستين عاماً . وسرعان ما تبع عودة البابا إلى روما الانشقاق الكبير The great Schism (١٣٧٨ -١٤١٧م) . وتتناثر أشلاء الكرسى الرسولى بين عدد من البابوات فى روما ، أفنيون ، وبيزا فى آن واحد ، وفى الوقت الذى أجهدت فيه انجلترا طاقاتها فى حملات عسكرية مضنية ضد التاجيـــن الفرنسى والاسكتلندى . ورغم كل الأحداث السياسية التى مزقت القارة الأوروبية فى القـــرن الـــرابع عشر . فقد شهد هذا القرن ازدهارا كبيرا فى مجال الآداب والفنون والتعليم . ولم تكن جامعة أكسفورد بمنأى عن هذه الصحوة الفكرية ومواصلة مسيرة تطورها[3] .

---

[1] شـــهدت جامعـــة أكسفورد فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر مولد عدد كبير من الكليات مثل كلية اكستر Exter College عام ١٣١٤م ومؤسسها وولتر ستابلدون Walter Stapledon أسقف إكستر . وكلية أوريل Oriel عام ١٣٢٤ م . وكلـــية الملكـــة Queen College عام ١٣٤١م على يد روبرت أجلسفيلد Robert Egglesfied قس الملكة فيليبا Philippa زوجة الملك إدوارد الثالث (١٣٢٧-١٣٧٧م) . وكلية كانتربرى وأسسها سيمون سلاب Simon Islap رئيس أساقفة كانتربرى عام ١٣٦١م . والكلية الجديدة New College على يد وليام ويكهام William of Wykeham أسقف وينشيســـتر عـــام ١٣٧٩م . والذى حصل على ترخيص من الملك ريتشارد الثانى (١٣٧٧-١٣٩٩م) بتأسيس كلية تتسع لســـبعين دارســـاً فى التخصصات المختلفة من الطلاب للفقراء والمعوقين ، الحاصلين على تعليم كاف فى النحو . وأن يكونوا دون العشرين من العمر . وأن يدرس عشرة منهم القانون المدنى ، وعشرة آخرون القانون الكنسى . أما الخمسون الســـباقون فقد تقرر أن يتجهوا لدراسة الفنون الحرة أو الفلسفة أو اللاهوت . وإذا كان وولتر مرتون هو المؤسس الحقيقة لـــنظام الكلـــيات الإنجليزية . يعتبر وليم ويكهام المؤسس الثانى . ثم تأسست كلية للكولن عام ١٤٢٩م بواسطة ريتشارد فلـــمج كان أحد أتباع ويكلف Wyclifite ، للدفاع عن العقيدة الكاثوليكية ضد الهرطقة التى نجا من الوقوع فى براثنها على حد تعبيره . ووجدت كليات أخرى علاوة على عدد لا حصر له من الكليات الديرية . واعتقد أن الحديث تفصيلاً عن هذه الكليات أمر لا يتسع صفحات البحث للوفاء به ويحتاج إلى دراسة مستقلة . ولمزيد من التفاصيل انظر :
Brodrick, op. cit., pp. 31, 31; Rashdall, op. cit., pp. 185-222.

[2] Brodrick, op. cit., pp. 28-30; Lyte, op. cit., p. 138.

[3] Brodrick, op. cit., pp. 28-30; Lyte, op. cit., pp. 28-33.

ففى عام ١٣٢٢م طالبت الجامعة ليس فقط بحق انتخاب المستشار وإنما عزله أيضاً. ووافــق أســقف لنكولن على التخلى عن حقه فى تعيين المستشار بدون تردد[1] . بيد أنه عندما تجــدد الــنزاع ثانــية عام ١٣٥٠م بين لنكولن، الذى أعاد مرة أخرى إثارة مسألة أحقيته فى تعييــن المستشــار ، لجــأت الجامعــة ، التى تحصنت بما تم الاتفاق عليه سابقاً، إلى رئيس الأساقفة ، الذى حث أسقفه على إقرار تعيين المستشار فى غضون ستة أيام فقط من انتخابه ، لــيس ذلــك فقط فقد بادر رئيس الأساقفة بإقرار تعيين المستشار دون مراعاة لأسقف لنكولن الذى أصر بدوره على أحقيته فى الانفراد بذلك وتأكيد مكانته الكنسية . وبث الأسقف الغاضب شــكواه ضــد رئيســه للــبابا فى روما ، والذى انحاز بدوره للجامعة ، وبارك مسلك رئيس الأســاقفة . وفــى عام ١٣٦٧ ذهب البابا أربان الخامس (١٣٦٢-١٣٧٠م) إلى أبعد من ذلك بإلغــاء إقــرار التعييــن كلية من جانب أسقف لنكولن ، وأن الانتخاب الشرعى للمستشار من خــلال أساتذة الجامعة الممارسين Regent Masters يعد كافياً ، لتتحرر الجامعة نهائياً من ربقــة السيطرة الأسقفية[2] . ولم يكن متوقعاً لرئيس شمامسة أكسفورد والذى يمثل أعلى سلطة كنســية مقيمة بالمدينة ، أن يكون أسعد حظاً من الأسقف فى الحد من تزايد سلطة المستشار لــيحظى المستشــار فى النهاية بصلاحية رئيس الشمامسة Archidiaconal على دارسيه .

---

[1] يرجع المؤرخين رشدال ومالليت بداية النزاع بين أسقف لنكولن والجامعة إلى أيام الأسقف أوليفر سئون Oliver Sutton ، الــذى أصبح منذ لحظة ارتقاءه المنصب الأسقفى متورطاً فى نزاع مع الجامعة . وفى مواجهة هذا الأسقف انعقد مجلس الجامعــة Congregation عام ١٢٨٠م . وتم القسم على مراعاة الحقوق الأربعة التالية باعتبارها أساساً لسلطة وتقاليد الجامعــة من البداية وهى ١- استدعاء الدارسين المتهمين فى قضايا مع أبناء المدينة أمام المستشار . ٢- إثبات صحة وصــايا الدارســين أمر من اختصاص المستشار . ٣- حق الاستجواب والتحقيق فى القضايا المتعلقة بالجنوح الأخلاقى للدراســين والعقود التى يبرمها المعلمين من اختصاص الجامعة . ٤- عدم الالتماس من جانب المدرسين فى أى محكمة ســوى محكمــة المستشــار . علاوة على ذلك أظهر المستشار والمراقبون إصراراً بأن سلطة الأسقف تنحصر فقط فى الاستئناف فى القضايا الأخلاقية التى باء اللجوء فيها للمستشار أو مجلس الجامعة بالفشل . وأصر الأسقف العنيد بدوره علــى ضــرورة حضور المستشار شخصياً أمامه لإقرار أو اعتماد تعينه . واعترض على مطلب الجامعة بحق انتخاب مستشــارها . ممــا أدى إلى نزاع حاد وتوقف فى المحاضرات فى أكسفورد . واضطر رئيس الجامعة – المستشار – لتحذيره بأن الجامعة لن ترضخ لهذا القيد غير المألوف" . وبناءً على تدخل الملك والبرلمان اضطر الأسقف للإذعان . بيد أنــه فى أوائل القرن الرابع عشر احتج الأسقف الجديد Dalderly على ما أسماه مؤامرات الجامعة وتجاوزاتها . وأثار الصعوبات بصدد تعيين المستشار وذكر الأساتذة بأن عليهم ترشيح المستشار فقط ، وأن التعيين من سلطة الأسقف وحده ، وهدد بالحرمان الكنسى ضد كل من يصدر قوانين تلحق ضرراً بمركزه أو أسقفيته . بيد أن الجامعة لم تيأس حتى تجدد الــنزاع عــام ١٣٢٢م . حيث وافق الأسقف كما أشرنا فى المتن على التخلى عن التعيين بدون تردد . بناءً على صيغة عرضــية لكرامة الطرفين . وظلت مقبولة لمدة خمسين عاماً فقط . حيث تغاضى أسقف لنكولن عن الحضور الشخصى للمستشار ، وأنه قام بإقرار واعتماد تعيينه بدافع من كرمه فقط . لمزيد من التفاصيل انظر :
Mallet, op. cit., pp. 166, 167; Rashdall, op. cit., pp. 118-120.

[2] فى الوقت الذى استمرت فيه الصيغة التوفيقية التى أسفر عنها نزاع ١٣٢٢م بصدد إقرار تعيين المستشار – كما سبق ذكره – مقــبولة لمدة خمسين عاماً من الطرفين . بيد أن هذه الفترة لم تمر دون نزاع من حين لآخر ففى عام ١٣٦٧م فوض الأســقف أقــدم أساتذة اللاهوت Senior Professor لتوقيع عقوبة الحرمان الكنسى على هؤلاء الذين بالتآمر يطالبون بانتخاب المستشار انظر : Munimenta Academica, pp. 168-172;
Mallet, op. cit., p. 167; Rashdall, op. cit., pp. 120-123, Brodrick, op. cit., p. 42.

ومـــن ناحية أخرى لم يتوان رئيس الأساقفة من البداية على التشجيع على استقلال الجامعة . وبالـــتالى لـــم يكن من السهل على الجامعة منازعة رئيس الأساقفة فى سلطته ، وآرائه بصدد العقيدة تحظى دوماً بالطاعة . وكانت زياراته الرسمية للجامعة باعتباره زائراً Visitor بمثابة أحـــداث أكاديمـــية هامة . بيد أنه فى نهاية القرن الرابع عشر أذعن رئيس الأساقفة كورتناى Courtenay لمرســـوم البابا بونيفاس التاسع (١٣٨٩-١٤٠٤م) الذى أعفى بمقتضاه الجامعة مـــن ســـلطة رئـــيس الأساقفة والأساقفة جميعاً . ولكن خليفته أرندل Arundel حصل على مســـاعدة الملـــك والبرلمان بتنحية هذا المرسوم جانباً ، وأقنع البابا جريجورى الثالث عشر (١٤٠٦-١٤١٥م) بإلغائه عام ١٤١١م.[١]

ونســـتطيع أن نقول في ضوء ما سبق أن التباين بين السلطة التى يمارسها مستشار مـــدارس أكسفورد باعتباره نائباً لأسقف لنكولن ، والسلطة التى آلت إليه كرئيس لجماعة لها أساتذة سرعان ما تلاشت . ذلك أن اعتماده على الجامعة جعله من الناحية العملية مستقلاً أكثر فأكـــثر عن الأسقف الذى كان يستمد منه سلطته لاسيما وقد أثبت التاج دوماً أنه صديقاً حميماً للمستشار ؛ بل ساعده على توسيع نطاق حقوقه وحريته[٢] .

ومـــن الجديـــر بالذكر أن الأساتذة الممارسين الذين ينتخبون المستشار إنما يختارون عالمـــاً فـــى القانون الكنسى أو اللاهوت . ولهؤلاء الأساتذة ليس فقط حق الاختيار بل رفض المرشـــح لمنصـــب المستشار . وفى أثناء أجازته يعمل العضو، أى الأستاذ الأكبر سناً ، فى تخصص اللاهوت كنائب له . وفى حالة غياب المستشار عن أكسفورد من الممكن تعيين نائبه للقـــيام بمهامه ، بيد أن غيابه كان يمنع باستمرار بسبب الأضرار الكثيرة الناجمة عن ذلك لا ســـيما مـــن جانـــب أسقف لنكولن . لذا ووفقاً لما تمدنا به حولية معاصرة، قد يفقد المستشار منصـــبه إذا غـــاب عـــن أكسفورد شهراً[٣] . وإذا ثبت عجزه عن تحقيق العدالة يحق لمجلس الجامعـــة اســـتدعائه لـــتقويم أساليبه أو الرحيل . وبدءاً من عام ١٣٢٢ كان يتم انتخابه لمدة عاميـــن ، ومـــن الممكـــن إعادة انتخابه لفترة ثانية . ولم تصبح وظيفته دائمة إلا فى القرن الخامس عشر[٤] .

وعلـــى حد تعبير المؤرخ الانجليزى ماليت "بدا هذا المسئول المنتخب أى المستشار الـــذى يديـــن للأســـاتذة باستقلاله، وكأنه حاكماً حقيقياً أثناء فترة رئاسته للجامعة ، فقد كانت ســـلطاته واسعة وهيبته ليست موضوع شك ، مشاركاً فى حكم وإدارة المدينة ، فهو المسئول الوحيد عن توزيع الخبز ، النبيذ ، البيرة ، وفحص الموازين والمكاييل ، والتأكد من عدم بيع الطعام الفاسد ، وإدارة الشوارع ، وطرد كل الدارسين المثيرين للفوضى ومصادرة أسلحتهم .

---

١ Mallet, op. cit., pp. 167, 168.

٢ Mallet, op. cit., p. 169.

٣ Munimenta Academica, vol. II, p. 127; Mallet, op. cit., p. 170.

٤ Mallet, op. cit., p. 170.

وصـــار لزاماً على التجار الالتزام بقوانينه ، ويسعى الحرفيون للحصول على موافقته لتنظيم نقاباتهم ، وخضوع المتسيبون ذكوراً وإناثاً لعقابه . وكان العمدة ونواب المدينة ملزمين بتقديم العـــون له فـــى القـــبض علـــى المخالفين . والتزام حاكم المقاطعة بإيداعهم السجن بناءً على طلـــبه[1]. وتـــتوج سلطة المستشار بالعهد الذى منحه الملك ريتشارد الثانى (١٣٧٧-١٣٩٩م) يمـــنع بمقتضاه الملك ونوابه من النظر فى قضايا من اختصاص محكمة المستشار. وفى عام ١٤٠٦ مـــنح الملـــك هنرى الرابع (١٣٩٩-١٤١٣م) الجامعة امتيازاً يعطى للمستشار تعيين مسئول جديد باسم Seneschalor Steward ، له حق محاكمة أعضاء الجامعة وأبناء المدينة مـــن زوى الامتـــيازات الخاصة ، والاتباع الذين لم يتمتعوا بحصانة الدارسين مثل الكتاب ، الحلاقيـــن ، الطهـــاه ، الغســـالين ، والحمالين .. الخ فى الجرائم الجنائية المتهم فيها هؤلاء ، والحكـــم وفقـــاً للقـــانون العلمـــانى . وتـــم إقرار هذا الامتياز الذى لا يضاهى ، علاوة على الصـــلاحية القديمـــة لمحكمـــة المستشار بمقتضى قانون برلمانى خاص . وأصبح المستشار الرئـــيس المعترف به للمجلس الكبير Magna Congregatio or great Congregation ، أى مجلس الجامعة[2] .

علاوة على المستشار وفى ضوء الحديث عن الهيكل التنظيمى لجامعة أكسفورد كان يوجـــد أثنيـــن مـــن المراقبين المنتخبين Proctors بواسطة قسم الآداب Faculty of Arts أحدهمـــا يمثل المعلمين من أبناء الشمال ، والآخر من المعلمين من أبناء الجنوب كما سبق أن ذكـــرنا فى بداية هذه الدراسة . وكانا بمثابة الرسميين للجامعة ككل ، وأقدم مسئولين تنفيذيين فى الجامعة . ومن مهامهما مساعدة المستشار فى أداء وظيفته ، وتنفيذ القوانين ، والإشراف علـــى الانتخابات ، وتنظيم العمل الأكاديمى ، والمشاركة فى احتفالات التخرج ، وإعداد قوائم بأســـماء المخالفين ، والتأكد من تنفيذ العقوبات والفرامانات ، والإشراف على إنفاق وحسابات الجامعـــة ، وتحصيل رسوم الدرجات العلمية . ويستطيعان إذا اتحدا استخدام الفيتو Veto أى الاعـــتراض فـــى مجال التشريع ، والدعوة إذا لزم الأمر لانعقاد مجلس الجامعة للتحقيق فى

---

[1] Ibid, pp. 170, 171; Brodrick, op. cit., p. 47.

[2] من الجدير بالذكر فى ضوء كثرة القضايا المعروضة للبت أمام المستشار لم يكن ثمة مراعاة تامة لتحقيق العدالة والنظام علـــى وجه الدقة . وكان المتهمون فى الجرائم الكبرى يستفيدون من أخطائه . ونظراً لإصرار الأساتذة الممارسين على التقاضـــى أمام المستشار أو من يفوضه بحيث أصبحت أعباء التقاضى تثقل كاهل المستشار أو نائبه . كان يتم الاستعانة بالدارسين الحاصلين على درجة البكالوريوس فى القانون الكنسى أو المدنى لمساعدة الدكاترة على اجتياز تلك المحاكمات. وكـــان الاســـتئناف يرفع للمستشار أولاً أو نائبه ثم إلى مجلس الأساتذة الممارسين وغير الممارسين . وكان حق الدفاع مكفولاً للدارسين . بيد أنهم كانوا على حذر من المحامين الذين يوكلونهم . لذا نص التشريع الجامعى على ضرورة البت سريعاً فى القضايا ، وكبح عدد المحامين الزائد عن الحد . لأنهم يشجعون على رفع القضايا بل وإخفاء الحقيقة من أجل الكسب المادى . لمزيد من التفاصيل انظر :
Munimentica Academica, pp. 231, 232; Mallet, op. cit., p. 174; Rashdall, op. cit., p. 103.

سـلوك المستشار ، بل وإبعاده من منصبه أى أنها باعتبارهما ممثلين للأساتذة يمتلكان سلطة كبيرة فى عقاب والإطاحة برئيس الجامعة المبجل.[1]

وبعد المستشار والمراقبين يأتى ما اصطلح على تسميتهم Bedels أى المحضرين[2]. وعددهـم سـتة ، اثنان منهم ينتمون لقسم أو مدرسة اللاهوت ، واثنان عن مدرسة القانون ، واثـنان عن مدرستى الطب والآداب . وهؤلاء بمثابة موظفين منتخبين من قبل الجامعة لتنفيذ أوامـرها . ويظهـرون فـى كـل الاحتفالات الرسمية بما فى ذلك الجنازات . والذهاب إلى المـدارس لتسـليم قـرارات الجامعة ، وإحصاء الأصوات أثناء التصويت على القرارات فى مجلس الجامعة ، وتحصيل الغرامات واصطحاب المخالفين إلى السجن . وهؤلاء المحضرين تحدد أجورهم وفقاً للقانون . وثلاثة منهم من أصل عريق وأعلى مكانة من الثلاثة الآخرين ، لـذا صـار لزاماً عليهم إمداد زملائهم الأدنى بالطعام وعشرة شلنات سنوياً لشراء الأحذية . ونظراً لأهميتهم ليس غريباً أن تتدخل شخصيات مرموقة فى الترشيح لتلك الوظائف[3] .

وكانـت إدارة الجامعـة بأيدى الأساتذة سواء الأساتذة الممارسين The Masters Regents ، والأسـاتذة غير الممارسين أى المتفرغين Non Regents Masters أى الذين توقفـوا عـن التدريس . ولهؤلاء سلطة غير متاحة لأمثالهم فى أى مكان آخر عدا أكسفورد حيـث يشـاركون فى صياغة وإعداد القوانين ، وفى شئون الجامعة الهامة الأخرى . وكان مجلـس قسم أو مدرسة الآداب يعرف أحياناً باسم The Black Congregation أى مجلس زوى الـبزة السـوداء ويقصـد بذلـك لون الرداء الأكاديمى . وتتم دعوته للانعقاد بواسطة المراقبين للاجتماع على حده فى كنيسة القديسة ملدريد St.Mildred . ومنذ البداية رسخ هذا المجلـس حقـه بـأن يستشار أولاً ، بمعنى أن كل قانون مقترح إصداره ، وحتى المقترحات الخاصـة بتغيير القوانين ومنح الاستثناءات Graces يجب أن تعرض أولاً أمام هذا المجلس قـبل اعتمادها من الجامعة ، علاوة على حق هذا المجلس بالاجماع رفض صدور أى قانون غـير مـرغوب فيه ، وأن القانون الذى لا يوافقون عليه لا ينفذ ، واعتراف الأقسام الرئيسية الأخـرى اللاهوت ، القانون ، الطب ، بحق هذا المجلس فى التشاور والمستقل وليس عرقلة صـدور قـانون آخـر . ومـن المشكوك فيه على الأقل فى الأيام الباكرة من تاريخ جامعة أكسـفورد أن يحظـى أى قانون تم رفضه من جانب المعلمين الممارسين فى الآداب فى هذا

---

[1] Mallet, op. cit., p. 175; Rashdall, op. cit., p. 53.

[2] نظـراً لأن هـذا البحـث موجه إلى القارئ العربى وجدت من الأفضل استخدام تعبير المحضرين كما سبق واستخدمت مصطلح الأروقة بدلاً من تعبير الأمم Nations المذكور فى المراجع الغربية الحديثة . الباحثة .

[3] فى ١٥٠١م من عهد الملك هنرى السابع تيودور (١٤٨٥-١٥٠٩م) تسبب انتخاب أحد المحضرين Bedels فى أكسفورد فـى حدوث انقسام حاد فى الدوائر الملكية . ففى حين أيد أمير ويلز وأسقف لنكولن أحد المرشحين ، كانت جدة الأمير اللـيدى مرجريـت تفضـل مرشحاً آخر ، والملك والملكة يشجعان مرشحاً ثالثاً . وفاز مرشح اللليدى مرجريت . انظر تفاصيل ذلك فى :
Munimenta Academica, p. 321-333; Rashdall, op. cit., p. 126; Mallet, op. cit., p. 176.

المجلـس بموافقـة الجامعـة . بـيد أنـه بمرور الوقت تلاشت سلطة هذا المجلس وتوقفت اجتماعاتهم المستقلة[1] .

عـلاوة علـى هـذا المجلـس يوجد مجلس الأساتذة الممارسين لكل الكليات The Congregation of Regent Masters ، ويعـرف باسـم المجلـس المصـغر Parva Congregatio or Lesser Congregation ؛ وفـيه يتم تناول كل ما يتعلق بعمل الجامعة مـثل الـتمويل ، والإدارة ، المحاضـرات ، الدراسـة ، الدرجات العلمية ، ويعقد فى جناح المرنمين بكنيسة القديسة مارى . يأتى بعد ذلك المجلس الكبير Magna Congregatio or Great Congregation الـذى يضـم الأساتذة الممارسين وغير الممارسين ، والذى يعتبر بمـثابة البرلمان الحقيقى للجامعة . وعلى حد تعبير المؤرخ رشدال الهيئة العليا المهيمنة على الجامعة القادرة على سن قانون دائم.[2]

وعـن كيفـية العمل التشريعى فى الجامعة كان يتم صياغة القانون فى مجلس قسم الآداب أولاً . وفـى البداية كان من الضرورى لإصدار أى قانون موافقة الأساتذة الممارسين وغـير الممارسـين فـى الأقسام أو التخصصات Faculties الأربعة، الآداب ، اللاهوت ، القانون، الطب . بيد أنه فى القرن الرابع عشر أدخل مبدأ التصويت بالأغلبية ، وبعد ذلك غدا لكل كلية حق إصدار القوانين الخاصة بها . وإن كانت تفاصيل النظام والإدارة والتعليم بصفة عامة تتم من خلال المجلس الكبير أى مجلس الجامعة ، وتسرى على جميع الأقسام ، والتى لم يكن لها عمداء آنذاك.[3]

وفـيما يتعلق بتفاصيل النظام التعليمى ، بداية لم يتضح لنا أن الطالب المستجد كان يخضـع لأى امتحان للقبول[4] . ونظراً لعدم وجود نظام Matricula or Matriculation فى الـبداية ، أى الكشوف التى يدون فيها أسماء الدارسين المستجدين ، كان يطلب من كل طالب أن يسـجل اسـمه لـدى أحد الأساتذة الممارسين ، واختيار الأستاذ الذى يجب أن يستمع إلى محاضـراته ، والإصـغاء لتحذير الطلبة القدامى بعدم التسرع فى اختياره ، ويعتبر ذلك أقدم

---

١ Rashdall, op. cit., p. 61; Brodrick, op. cit., p. 66; Mallet, op. cit., pp. 176, 178.

٢ Mallet, op. cit., p. 177; Rashdall, op. cit., p. 36.

٣ Rashdall, op. cit., p. 65; Mallet, op. cit., p. 179.

٤ Brodrick, op. cit., p. 21.

وأقــرب صــيغة بديلة لنظام القبول[1] . ومن جهة أخرى لم تكن سن طالب العصور الوسطى محددة ، فقد يكون فى أى سن ، وقد يكون غلاماً في الثالثة عشرة من عمره.[2]

وكـــان الأساتذة يجلسون على مقاعد مرتفعة قليلاً عن الدارسين الذين يجلسون على وســائد من القش على الأرض ، "بهدف نزع كل مشاعر الخيلاء والغرور من نفوسهم" على حد تعبير المؤرخ ماليت . بيد أن ذلك من وجهة نظر الباحث يرجع إلى فقر موارد وإمكانيات الجامعــة فى البداية . وكانت الكتب موجودة فى شكل مخطوطات باهظة الثمن ، مكدسة فى حجــرات شديدة البرودة فى الأديرة . وكان التدريس يتم بطريقة شفوية Viva voce ، حيث المدرســون يقرأون والطلبة يستمعون ، قد يفهمون أو لا يفهمون . لذا كانت الفرصة الوحيدة لاكتســاب المعرفة تعتمد على قوة الذاكرة ، والتعلق بشفاه المدرس – على حد تعبير المؤرخ بودريــك Brodrick – الــذى يحاضــر لجمــوع متباينة من الدارسين من مختلف الأعمار والقــدرات . وكان التدريس باللغة اللاتينية ، التى يعد اتقانها أمراً ضرورياً ، باعتبارها اللغة المشتركة المتداولة بين المتعلمين آنذاك . ونستطيع التعرف على طريقة التدريس فى أكسفورد فــى القــرن الخامس عشر من قانون صدر عام ١٤٣١م ، يفرض على الأساتذة قراءة النص أولاً ، ثم شرحه بعدئذ ، ثم تناول الفقرات التى تحتاج إلى تعليق خاص ، بيد أن الخروج على الــنص كــان ممــنوعاً . وكان التحليل والتقسيم الفرعى للنصوص ، ومعرفة وجهات النظر المؤيــدة والمعارضة ، وطرح الاسئلة ، واقتراح الإجابات من الأساليب التى تروق للأساتذة والدارسين على السواء حتى أمست غريزة النقاش تسرى فى دمائهم[3] .

لامــراء أن التعلــيم الجــامعى فى أكسفورد في العصور الوسطى كان يتطلب وقتاً طويلاً وشاقاً للباحثين عن شرف نيل درجة علمية ، حيث يقضى الطالب فى تخصص الآداب أربــع سنوات فى سماع المحاضرات التى تبدأ عادة فى الساعة الثامنة صباحاً؛ العامين الأول والــثانى لدراســة البلاغة والنحو والمنطق والفلسفة ويصبح بعدهما طالب الآداب سوفسطائياً عامــاً Sophista generalis ، والعامين الثالث والرابع فى دراسة المنطق ، وفلسفة الأخلاق لأرســطو ، والهندسة ، علاوة على محاضرتين مسائيتين فى اللغة اليونانية[4] . وبانتهاء العام

---

[1] فــى البداية كان نظام Matricula أى الكشوف التى يدرج فيها أسماء الدارسين ، قاصراً على الجامعات التى قامت على أساس على رابطة الطلبة مثل بولونيا . بيد أن جامعة أكسفورد قامت على أساس رابطة الأساتذة . وعلى غرارها جامعة باريس كان للأساتذة قوائم أو كشوف خاصة بهم ، يتعرف من خلالها الطالب على الأساتذة ، وبالتالى اختيار الأستاذ الذى سوف يدرس على يديه . انظر تفاصيل ذلك فى :

Mallet, op. cit., p. 180.

[2] ول ديورانت ، قصة الحضارة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٥، جـ٦ ، ص ٤٩ .

[3] Mallet, op. cit., pp. 184; 186; Brodrick, op. cit., p. 22.

[4] للوقوف على التفاصيل الدقيقة بصدد المناهج الدراسية ومواعيد وأيام المحاضرات للدارسين فى الآداب انظر الدراسة القيمة الموجزة التى قام بها :

الـــرابع يصـــبح الطالـــب مهيـــئاً لاجتياز مناقشات فى النحو والمنطق مع أحد الاساتذة يسأل ويجيـــب. وبنجاحه فى ذلك يكون مؤهلاً لمواجهة لجنة من أربعة أساتذة يتم اختيارهم سنوياً، لكـــى يقـــنعهم أنـــه مـــن كل الوجوه ، التعليم ، السلوك ، حتى الهيئة شخصاً ملائماً للتخرج Determination or Determination . ثـــم يتوج ذلك باحتفال يضم الأصدقاء حيث تقدم الهدايـــا النفيسة ، الأمر الذى يجعل من التخرج حدثاً لا ينسى فى حياة الطالب ، والذى ينتقل بذلـــك إلى مصاف الخريجين ، وحصوله على درجة البكالوريوس فى الآداب Bachelor of Arts . وبـــناء علـــى تصـــريح Licens من المستشار يبدأ فى إلقاء المحاضرات العارضة Cursory أى غـــير الأساسية ، بجانب حضور المحاضرات لنفسه . وعند هذه الدرجة إن لم يكـــن قـــبلها كـــان يتوقف الكثيرون من الدارسين فى أكسفورد[1] . وبعد ذلك كان يتعين على الطالـــب أن يدرس ثلاث سنوات أخرى للحصول على درجة الماجستير، حيث كان يتلقى في العام الأول تكون المحاضرات صباحاً فى الميتافيزيقا والهندسة ، وفى المساء التاريخ واللغتين اليونانـــية والعـــبرية؛ والعامين الثانى والثالث فى دراسة الفلك والميتافيزيقا والفلسفة الطبيعية لأرسطو ، وأيضاً التاريخ واللغتين العبرية واليونانية، بهدف تمكين الخريج من دراسة الفنون الحرة السبعة بمجموعتيها الثلاثية والرباعية ، وتأهيله لتدريسها، علاوة على الفلسفة بفروعها الثلاثة واللغات والتاريخ[2] . وبعدئذ يصبح الطالب جاهزاً للاستقبال فى صحبة الأساتذة . وفى احتفال رصين يتم دعوة تسعة من الاساتذة الممارسين بالاضافة إلى أستاذه الذى يقوم بتقديمه، لكـــى يـــتحدثوا من واقع معرفتهم الشخصية عن أخلاقياته وانجازاته ، فى حين يؤكد خمسة

---

[1] Holland, T. "The Ancient Organisation ofUniversity of Oxford" Macmillan's Magazine, vol. XXXVI, Cambridge, 1877, pp. 203-210; Mallet, op. cit., p. 186; Brodrick, op. cit., pp. 62, 63; Rashdall, op. cit., p. 143.

[1] Holland, op. cit., p. 207; Mallet, op. cit., p. 188.

[2] يذكـــر المـــؤرخ الانجلـــيزى المعاصـــر بوردبـــك Brodrick أن تاريخ إدخال منهج جامعى ، أو مجموعة من الكتب والموضـــوعات – المقرر الدراسى – لكى يدرسها الطلبة للحصول على درجات فى التخصصات المختلفة ، يرجع إلى القوانين التى قدمها المبعوث البابوى للكاردينال روبرت دى كورسون Robert de Courcon لجامعة باريس ، فى بداية القرن الثالث عشر . بيد أن منهج جامعة أكسفورد كان يختلف قليلاً فى الفترة بين عصر رجال التعليم وعصر النهضة . وبمقتضى القانون الصادر عام ١٤٣١م كان المنهج الدراسى فى مدارس الآداب ، يتضمن علم النحو الذى احتل المرتبة الأولـــى مـــن خلال مؤلفات برسكيان Priscian ، ودوناتوس ، تدرس بهدف تلقين قواعد الإعراب أو علم العروض . وكانـــت أشـــعار فرجـــيل Poetra Virgilii ، أوفيد Ovid ، ليفى Livy ، تاكيتوس Tacitus ، وغيرهم من الشعراء والمؤرخيـــن الـــرومان تدرس باعتبارها نماذج للأسلوب الأدبى . وكانت مصنفات The Categorise أرسطو وكتاب بورفـــيرى Porphyry المعـــروف باســـم Isagoge . وكتاب Topics لمؤلفه بؤثيوس هى الكتب الدراسية في مدارس المـــنطق ، كما كانت كتابات شيشرون Gicero ، وكونتليان Quntilian فى البلاغة . علاوة على مؤلفات كاسيدورس Cassiodorius ، أورســـيوس Orosius ، ومارتـــيانوس كابيلا Murtianus Capella ، وايسيدورسيفيل Isidore Seville ، عـــلاوة على مؤلفات أرسطو فى الفلسفة بفروعها الثلاثة الأخلاق ، الطبيعة ، الميتافيزيقا والتى تتدرج تحت اســـم Nichomochen Ethics . وقـــد احتل المنطق قمة الدراسات باعتباره أداة للجدل والإقناع بعد تكملته بالبلاغة ، لمزيد من التفاصيل أنظر :

Brodrick, op. cit., pp. 64, 65; Holland, op. cit., p. 207; Lyte, op. cit., p. 9; Mallet, op. cit., p.188.

آخرون صدق ما قاله هؤلاء الأساتذة . وفى نهاية مراسم الاحتفال يتقدم أمام المستشار ويقسم أمامه راكعاً على ركبتيه باسم الثالوث المقدس . ويصبح عضواً فى جماعة الأساتذة ، ويتسلم رمزاً لذلك الكتاب ، القلنسوة ، الخاتم ، وقبله المباركة من أستاذه[1] .

وتجـــدر الإشارة لحقيقة هامة مؤداها انفراد جامعتى أكسفورد وكمبريدج من بين كل جامعات أوروبا بعدم وجود ثمة شئ يشبه الامتحان بالمعنى الحديث . وكان النجاح فى اجتياز المناقشات بمثابة اختبار للكفاءة والجدارة وأيضاً المرادف الحقيقة للامتحان . ومن حق الأستاذ الممتحـــن إيقاف الطالب فى حالة الخروج عن الموضوع ، والجنوح لموضوعات أخرى ، أو استخدام حجج غير مقنعة[2] .

ونتيجة لزيادة أعداد الخريجين الراغبين فى الإعفاء من التدريس[3] ، فقد نص القانون الصـــادر عـــام ١٤٣١م بأن يقوم المراقبون فى نهاية كل فصل دراسى بحصر عدد الأساتذة الممارســين المستعدين للتدريس ، وتقسيمهم طبقاً للأقدمية إلى عشر مجموعات متساوية فى العـــدد قـــدر المستطاع ، على أن يقوم الأساتذة الأصغر سناً بتدريس علم النحو ، وتخصيص الموضـــوعات الرئيسية higest subjects للأساتذة القدامى، وعدم قيام أى شخص بتدريس أى كتب سوى تلك المنصوص عليها فى القانون، والتى سبق الإشارة إليها[4] .

علـــى أية حال فإن الطالب الذى اجتاز المقرر الدراسى فى الآداب ، وأصبح استاذاً ممارســاً يســتطيع الانـــتقال لدراســة التخصصات الأرفع والأسمى مثل الطب ، والقانون ، واللاهـــوت، حيـــث مجـــالات الفكر الأرحب ، وهكذا أمست الدراسة فى الآداب أولاً أساساً للدراسة فى التخصصات الأخرى[5] .

وهـــناك فروع أخرى من العلوم تم تدريسها فى أكسفورد فى العصور الوسطى مثل الطب . بيد أن موقف الكنيسة والأفكار المرتبطة بالفلسفة التعليمية Scholasticism ، حالت دون تطـــور علـــم الطـــب فى الاتجاه الصحيح ، حيث المناقشات الشفهية أهم من الملاحظة والبحـــث ، والطبيـــب بدون تنجيم أى بدون علم الفلك مثل العين التى لا ترى . حتى روجر بـــيكون اعـــتقد أن أهـــم الأدوية المركبة جزئياً من اللؤلؤ والأحجار يجب أن تتعرض لتأثير

---

[1] Holland, op. cit., p. 208; Mallet, op. cit., p. 189.

[2] من الجدير بالذكر أن الطالب الذى لم يتقدم إلى مرحلة أبعد من درجة البكالوريوس كان يسمى السيد Dominus ، انظر حاشية رقم (٥) فى :

Mallet, op. cit., p. 188; Munimenta Academica, p. 246.

[3] تجدر الإشارة أن الأساتذة الممارسين كانوا ملزمين بالتدريس لمدة عامين بعد التخرج ، إلا إذا تم إعفائهم من هذا الالتزام ، وفـــى هذه الحالة ينظر إليهم باعتبارهم أساتذة غير ممارسين Non Regents Masters . بيد أنه يتم دعوتهم لحضور اجتماع مجلس الجامعة أى الاجتماع الكبير للمدارس انظر :

Brodrick, op. cit., p. 66.

[4] Ibid, pp. 65, 66.

[5] Holland, op. cit., p. 209, Mallet, op. cit., pp. 189, 190.

الـــنجوم لمدة ثمانية أيام . ومن جهة أخرى لم تقدر الجراحة حق قدرها، فقد نظر إليها أطباء بـــاريس فـــي القرن الرابع عشر ، ويرجح أطباء أكسفورد باعتبارها فناً يدوياً وصنيعاً . وفي الوقـــت الـــذى كان بوسع الجراحين في أكسفورد الحصول على ترخيص بمزاولة المهنة ، لم يكن باستطاعتهم الحصول حتى على أدنى درجة علمية . ولم يكن وضعهم فى أكسفورد يزيد عـــن وضع بائعى العقاقير والعطارين الذين يبيعون الأعشاب فى الشارع الرئيسى بالمدينة . وكـــان التشـــريح مـــا يزال في المهد مصدراً للخوف[1]، رغم أنه فى سالرنو عام ١٢٣٨ أمر الإمـــبراطور الألمـــانى فـــريدريك الـــثانى بتشـــريح جثة كل خمس سنوات . وكان أبقراط Hippocrates مؤســـس الطـــب وجاليـــن Galen هما الأساس . وهناك ذكر لكتب اسحاق اليهودى ، ونيقولاس السالرنى[2] .

وفـــي الوقـــت الذى كانت القاعدة المعتادة تقضى بالتخرج من الآداب أولاً . لم تكن درجـــة الآداب للمشـــتغلين بالطـــب . ومن جهة أخرى فإن قضاء أربع سنوات من الدراسة للحصـــول على درجة البكالوريوس فى الطب أمراً ضرورياً للموافقة على ممارسة الطب فى أكســـفورد . وبـــناء علـــى امتحان يعقد من خلال الأساتذة الممارسين وللحصول على درجة الدكـــتوراه فـــي الطـــب بالنسبة لأساتذة الآداب ، كان الأمر يتطلب قضاء عامين آخرين من الدراسة فى الطب ، يرجح قضاءهما فى الممارسة العملية . ووفقاً لما ورد فى حولية أكاديمية معاصرة . فإن قضاء عامين فى الممارسة المهنية قبل الحصول على درجة دكتور فى الطب M.D أمـــراً مؤكـــداً بهـــدف منح بعض الخبرة العملية للحصول على هذه الدرجة . وكانت الممارســـة فـــي المستشـــفى أمراً متاحاً بيد أنها ضئيلة . وربما كانت تبذل بعض المحاولات للتعامل مع المرض[3] .

علـــى أيـــة حال ، لم تبدأ الدراسة الأكاديمية لعلم الطب إلا فى أوائل القرن السادس عشر بعد أن تلاشت سيطرة الكنيسة[4] .

عـــلاوة على ذلك فقد حظيت دراسة القانون الرومانى بشقيه المدنى والكنسى بأهمية كـــبرى، وأمست مجموعة القوانين المدنية للإمبراطور جستنيان ، والديكرتيوم Decretum [1]

---

[1] Mallet, op. cit., p. 190.

[2] كان لجوء أبقراط إلى التجربة بمثابة حجر الأساس للعلوم الطبية في العصر الحديث . ثم جاء جالين بعده بحوالى ستمائة عـــام ليلقى بظلاله على تاريخ الطب لمدة تزيد عن ألف عام . وقد حظيت آرائه بالقبول لدى معظم علماء اللاهوت فى العصور الوسطى سواء من اليهود أو المسيحيين أو المسلمين . وتضمنت مؤلفاته كل ما يرغب طلبة الطب معرفته علم النفس ، التشريح ، علم النبات . وكانت كتبه البالغ عددها اثنين وعشرين مجلداً في نسخها اللاتينية ، العربية ، السريانية ، العـــبرية تمـــلأ المدارس فى كل مكان . وكانت الترجمات العربية هى الجسر الرئيسى لعبور الطب اليونانى إلى أوروبا الغربية . انظر :

Munimenta Academica, vol. II, pp. 406-409; Mallet, op. cit., pp. 191, 192; Rashdall, op. cit., p. 156.

[3] Munimenta Academica, vol. II, p. 406; Mallet, op. cit., p. 190.

[4] Mallet, op. cit., p. 194.

تـــدرس فـــى مدارس القانون فى أكسفورد[٢]، وبات القانون المدنى الدراسة المفضلة للدارسين الأكـــثر طموحاً ، باعتباره الطريق المؤدى إلى الثروة والمجد . فقد كتب روجر بيكون أشهر أســـاتذة أكسفورد عام ١٢٧١م قائلاً : "إن رجال القانون يحصدون كل المكافآت والوظائف ، فـــى حيـــن لا يمتلك دارسى اللاهوت والفلسفة الأموال اللازمة للعيش ، أو اقتناء الكتب ، أو لإجـــراء الـــتجارب اللازمـــة لكشف أسرار العلم . ولا يمتلك رجال القانون الكنسى الوسائل الضـــرورية للعـــيش والدراســـة إلا على أساس معرفتهم السابقة بالقانون المدنى لأن دارسى القـــانون المدنـــى يزدادوا ثراء ومجداً بالعمل لدى جميع الأساقفة والأمراء .. لذا فإن اشتهاء دراسة القانون المدنى كان يجذب غالبية الدارسين، وأن المحامى المدنى أكثر جدارة من رجل اللاهـــوت بالثناء فى كنيسة الرب . حتى لو كان عليماً بالقانون المدنى فقط، وجاهلاً بالقانون الكنسى واللاهوت، وسرعان ما يتم اختياره للوظائف الكنسية المرموقة"[٣] .

يؤكـــد المؤرخ الأمريكى المعاصر نورمان كانتور ما ذكره العالم الانجليزى روجر بـــيكون[٤]، بأنـــه كـــان بمقـــدور من يتخرج من إحدى جامعات العصور الوسطى بعد دراسة القـــانون ، أن يدخـــل فى خدمة أى حاكم علمانى ، وأن يواصل تدريبه بعد تخرجه فى مجال القانون الكنسى بحيث يعمل فى خدمة الكنيسة . فإذا ما اتبع المسار الأول كان من المحتمل أن يصير يوماً الوزير الأول لأحد الملوك الأقوياء المتصارعين مع البابوية، وإذا ما اتخذ السبيل الـــثانى أى دراســـة القـــانون الكنسى كان من الممكن أن يختتم حياته العملية بارتقاء العرش

---

[١] تعـــرف هذه المجموعة باسم قوانين جراتيان Decrtum Gratiani ، وهى عبارة عن مجموعة من القرارات والمراسيم والأحكـــام الـــبابوية . صدرت حول مختلف أمور نظام القانون الكنسى . وكانت فى الأصل خطابات بابوية مرسلة إلى الأســـاقفة إجابة على أسئلة أو تقارير أو دعاوى . وقد جمعها المشرع والمبعوث البابوى جراتيان سنة ١١٤٠-١١٤١م تحـــت عنوان "ترتيب القوانين الكنسية المتنافرة" Concordantia Discordautium Canonum . والمجموعة تحتوى على ما يقرب من أربعة آلاف إشارة إلى مصادر كنسية عديدة ، مثل الدساتير الرسولية ،نصوص آباء الكنسية ، والقوانين الصـــادرة عـــن المجامع الكنسية ، فضلاً عن المراسيم البابوية Decretals سواء كانت أصلية أم مزورة . وجميع هذه المصـــادر الـــتى تتناول النظام الكنسى رتبت على نسق علمى وفقاً للمنهج المدرسى . وسرعان ما اعتبرت بمثابة كتاب أساسى فى القانون الكنسى فى مدارس القانون فى بولونيا وباريس وأكسفورد . وصارت مرجعاً ثقة فى المحاكم فى جميع أنحاء أوروبا . وهى تشكل الجزء الأول من "مجموعة القوانين الكنسية" Corpus Juris Canonici ، انظر كانتور ، المرجع السابق ، جـــ٢ ، ص ٤٣٥ ، حاشية رقم (١) .

[٢] Mallet, op. cit., p. 194.

[٣] Lyte, op. cit., p. 55.

[٤] مـــا ذكره روجر بيكون بصدد إعلاء أهمية دراسة القانون المدنى إنما جاء صدى لاستياء البابا أنوسنت الرابع (١٢٤٣-١٢٥٤م) . الـــذى بـــذل قصارى جهده لقصر دراسة القانون المدنى على تخوم الامبراطورية الرومانية المقدسة فقط . وأصدر مرسوماً عام ١٢٥٤م يقضى بألا يتقدم أى أستاذ فى القانون ، أو محامى ليس ضليعاً فى القنون الحرة لأى وظيفة أو منصب كنسى من أى نوع فى فرنسا ، انجلترا ، اسكتلندا ، ويلز ، أسبانيا ، أو المجر . واقترح على حكام تلك البلاد تحريم كل المحاضرات فى القانون الرومانى القديم تحريماً مطلقاً فى كل الأماكن التى لا تعترف فى محاكمها العادية بذلك القـــانون . بيد أن تلك الإجراءات القمعية لم تستطع الصمود أمام إقبال الدارسين على الدراسة المكثفة للقانون المدنى . انظر تفاصيل ذلك فى :

Lyte, op. cit., pp. 55, 56.

البابوى نفسه . وبحلول النصف الثانى من القرن الثانى عشر كانت البابوية تجند كل العاملين فى جهازها الإدارى تقريباً من خريجى مدارس القانون الأوروبية.[1]

وكانت درجة البكالوريوس فى القانون المدنى فى أكسفورد تتطلب أربع سنوات من الدراسة بالنسبة لأساتذة الآداب ، وست سنوات بالنسبة للآخرين؛ ودرجة الدكتوراه عامين أو ثلاثة من المحاضرات والمناقشات . ولم تكن القواعد الخاصة بالحصول على درجة البكالوريوس فى القانون الكنسى تشترط الحصول على درجة علمية فى الآداب . ولكن قضاء خمس سنوات فى دراسة القانون المدنى ، ودراسة كتاب الديكرتيوم لجراتيان ، ومراسيم البابا جريجورى التاسع (١٢٢٧-١٢٤١م) . وبالنسبة لدرجة الدكتوراه فى القانون الكنسى كان الأمر يتطلب قضاء عامين آخرين من الدراسة ، وعام آخر زيادة الذين لم يحصلوا على درجة فى القانون المدنى[2] .

أما بالنسبة للاهوت العلم الأرفع مقاماً، لم تكن ستة عشرة أو تسعة عشر عاماً من الدراسة بالشئ الكثير . وأساتذة الآداب الذين قضوا سبع سنوات فى الدراسة كان عليهم الدراسة لمدة سبع سنوات أخرى للحصول على درجة البكالوريوس فى اللاهوت لكى يسمح لهم بإلقاء محاضرات عن كتاب الأحكام Sententiarum or Sentences لبطرس اللمباردى، الذى كان يحتل المرتبة الثانية بعد الإنجيل . ثم قضاء عامين آخرين من الدراسة للحصول على درجة الدكتوراه[3] . والدارسين الذين لم يكونوا من الخريجين فى الآداب كان عليهم قضاء عشر سنوات دراسة فى اللاهوت للحصول على درجة البكالوريوس فى اللاهوت، وثمان سنوات لدراسة الفنون الحرة أى قضاء ما يقرب من تسعة عشر عاماً على الأقل للحصول على درجة دكتوراه فى اللاهوت[4] .

وبالطبع فقد أمست تكاليف اجتياز هذا النظام الدراسى المسهب والمعقد ، والحصول على درجات علمية سواء فى الآداب ، الطب ، اللاهوت والقانون ، باهظة للغاية . وعلى حد تعبير المؤرخ ماليت "فإن الكثيرين من الرجال الذين ذهبوا إلى أكسفورد ، واحتشدوا فى كنائسها ، وغنوا فى حاناتها ، وتشاجروا فى دروبها ، وتناقشوا فى مدارسها، وجدوا المعايير الأكاديمية تفوق طاقتهم ، ولم يستطيعوا مواصلة التعليم باعتباره عبئاً على وقتهم ونقودهم"[5] .

---

[1] كانتور ، المرجع السابق ، ص ٤٣٣ .

[2] Munimenta Academica, vol. II, pp. 399, 400, Mallet, op. cit., pp. 194, 195;
ولمزيد من التفاصيل بصدد المنهج الدراسى فى القانون المدنى والكنسى انظر :
Rashdall, op. cit., pp. 156, 157.

[3] Munimenta Academica, vol. II, p. 389, Rashdall, op. cit., vol. II, pp. 158, 159; Mallet, op. cit., p. 195;

[4] Munimenta Academica, vol. II, pp. 389, 390.

[5] Mallet, op. cit., p. 201.

وكانـــت الرســـوم الخاصة بمنح الدرجات العلمية تتفاوت من تخصص لآخر ، ففى حين كانت الرسوم الخاصة بالآداب تقتصر على إقامة وليمة للأساتذة لمدة أسبوع، بينما كانت درجـــة الـــبكالوريوس فـــى القرن الخامس عشر فى أى تخصص تمنح مقابل أربعة بنسات ، وبالنســـبة للدرجـــات الأعلـــى كانـــت الرسوم باهظة . لذا اتخذت بعض التدابير لتوفيق هذه التكاليف مع قدرة المرشحين لهذه الدرجات على الدفع . وكان الأستاذ الجديد فى الآداب يبتهج بالتخلص من عبء إطعام الأساتذة الممارسين مقابل ما يعادل عشرون جنيهاً . وكان مسموحاً للخريجين الأثرياء بدفع نفقات تخرج زملائهم الفقراء[1] .

وفيما يتعلق بمرتبات الأساتذة فى مدارس أكسفورد فقد اعتمدت أساساً على الرسوم الـــتى تؤخـــذ مـــن الدارسين[2] ، ووفقاً للنظام السائد – كما سبق الإشارة – بأن يقوم الطالب باختـــيار الأستاذ الذى سيدرس على يديه ، ودفع رسوم للجامعة مقابل ذلك ، ونتيجة لذلك فإذا لـــم يكن بوسع الأستاذ أن يجتذب الطلاب لمحاضراته لا يعود له شئ آخر يعول عليه ، ولابد لحـــياته أن تنتهى بالفشل الذريع والفقر المدقع . ومن المحتمل أن هذه الرسوم لم تكن عالية، فقـــد كـــان الطالـــب يدفع أثنى عشر بنساً فى العام أو ثلاثة بنسات فى الفصل الدراسى مقابل محاضرات المنطق . والحد الأدنى لرسوم المحاضرات فى الفيزياء ثمانية عشر بنساً . وتقدر رســـوم الدراســـة فـــى النحو بثمانية بنسات فى الفصل الدراسى الواحد . وفى التخصصات الرئيســـية عامـــة مـــثل الآداب ، الطب ، اللاهوت ، القانون، كانت الرسوم أعلى، ولم يكن مسموحاً للأساتذة بتخفيفها . وفى القرن الخامس عشر كانت الرسوم فى مدارس الآداب تجمع وتوزع بالتساوى على الأساتذة الممارسين، بيد أنها لم تكن كبيرة بالشكل الكافى.[3]

وفى الجامعات ذات الأصل الكنسى ، وأحياناً الجامعات ذات الأصل العلمانى ، نجد كثـــير مـــن الأســـاتذة يشـــغلون وظائف كنسية ذات دخل ، وذلك بصفتهم رجال دين وليس باعتـــبارهم أساتذة . ومن ثم جرت العادة فى القرن الثالث عشر على ألا يطلب الأساتذة الذين يتقاضون مرتبات من وظائفهم الكنسية رسوماً من الطلبة . بيد أن ذلك بالطبع لا يعنى مجانية التعليم للدارسين . وفى عام ١٣٢٢م واقتداء بما حدث فى باريس التمست جامعة أكسفورد من الـــبابا جـــون الثانى والعشرون (١٣١٦-١٣٣٤م) منح نفس الامتيازات التى أسبغتها البابوية على دكاترة القلسفة واللاهوت فى باريس أى الإنعام عليهم بوظائف كنسية[4] .

---

[1] Ibid, p. 196.

[2] لمزيد من التفاصيل بصدد مرتبات الأساتذة ورسوم الدارسين فى جامعات العصور الوسطى انظر الدراسة القيمة التى قام بها :

Gaines Post, "Master's Salaries and Student-Fees inMediaeval Universities", Speculum, vol. 7, 1932, pp. 181-198.

[3] Mallet, op. cit., p. 199.

[4] حظى أساتذة اللاهوت فى مدارس باريس بأهمية خاصة ، ففى عام ١٣١٦ أمر البابا جون الثانى والعشرون أساقفة الكنيسة بـــتزويد الأساتذة والدارسين للاهوت فى باريس بوظائف كنسية ذات دخل لمواجهة تدهور التعليم . وبدأت جامعة باريس

لامـــراء أن الحاجـــة إلـــى توفير مرتبات كافية للأساتذة ، والنفقات الباهظة للتعليم الجـــامعى مـــن العوامل التى عرقلت التعليم فى مدارس أكسفورد منذ نشأتها . ومن ثم تأتى أهمية التبرعات والتى بدونها كان فشل التعليم الجامعى مؤكداً . وفى هذا الصدد يذكر المؤرخ الانجلـــيزى المعاصـــر آلان جوبان Alan Gobban "تدين جامعتى أكسفورد وكمبريدج فى العصـــور الوســـطى بدرجة كبيرة لسخاء العديد من المتبرعين من أصول اجتماعية متباينة ، الملـــوك ، الملكـــات ، رؤســـاء الأســـاقفة ، الأســـاقفة ، رجـــال الدين ، النبلاء ، التجار ، والـــبرجوازية . وبدون الدور المحورى لهؤلاء المتبرعين ما استطاعت الجامعات الانجليزية فـــى العصـــور الوســـطى أن تتخطى الوضع الذى كانت عليه فى أوائل القرن الثالث عشر ، محصـــورة فـــى إطار مجموعة من الأساتذة والدارسين يعيشون ، ويتعلمون ، ويدرسون فى أماكن مزدحمة وغير ملائمة تماماً".[1]

وبالرغم من المساهمة الفعالة التى أسدتها الملكية الانجليزية للمجتمع الأكاديمى بوجه عـــام، فقـــد تراءى التبرع الملكى فى صورة أقل من المتوقع منه ، فيما يتعلق بالدعم المادى للدارســـين ، إن الدعـــم الملكى للدارسين فى القرن الثالث عشر لاسيما فى عهد الملك هنرى الثالث ، إنما جاء انعكاساً لخدمة الأغراض السياسية للملكية الانجليزية ، ولم يخرج عن كونه آداة دبلوماســـية لدعم إبرام سلسلة من التحالفات العسكرية مع البارونات الفرنسيين المجاورين لخصـــمه اللـــدود الملك الفرنسى بتقديم منح دراسية لأبنائهم وأقاربهم؛ وعلى سبيل المثال لا الحصـــر فقد دعم تحالفه العسكرى مع كونت أفرجين Auvergne بتقديم منحة دراسية لشقيق الكونت ، والإنعام عليه بوظيفة كنسبة بهدف توفير دخل ثابت أثناء الدراسة . أيضاً هناك منح نقدية قدمت لعدد من الأقارب وأبناء العاملين فى الحاشية الملكية لهنرى الثالث وأشهر هؤلاء إيمـــر لوزجـــنان Aymer of Lusignan الأخ غـــير الشقيق للملك هنرى الثالث، الذى جاء للدراســـة فى مدارس أكسفورد عام ١٢٤٧م، حيث تم منحه مبلغ مائتى مارك نقداً وامتيازات أخرى[2] .

وكانـــت المـــبالغ المالية التى تمنح للدارسين باستثناء أقارب الملك المقربين تتراوح عادة بين خمس وعشر ليرات سنوياً . وكان الملك إدوارد الأول قد أرسل اثنين من النبلاء من جاسكونى للدراسة فى أكسفورد ، وخصص لهما خمسة وثلاثون ماركاً فى العام ، علاوة على

تحمل إلى بلاط روما قوائم باسماء المرشحين الذين يرجى من البابا الانعام بوظائف كنسية ذات دخل . انظر :
Gaines post, op. cit., p. 186.

Goblan, "English University Benefactors in the Middle Ages", History, July 2001, vol. 86, pp. 288, 289.

Lyte, op. cit., p. 14;

ولمزيد من التفاصيل عن الدعم الملكى للدارسين فى القرن الثالث عشر انظر الدراسة المهمة التى قام بها :
Pegues, "Royal Support of Students in the Thirteenth Century" Speculum, January, 1956, pp. 457-462; Lyte, op. cit., p. 42.

أثنى عشر جنيهاً لكل منهما . ونظراً لأن الملكية الانجليزية تمثل متبرع متقلب الأحوال نوعاً مـــا للجامعات الانجليزية، فقد وجدت الجامعة عوضاً عن ذلك فى تبرعات العائلات من أسر النبلاء . وتشير الاحصائيات على مدى الفترة من ١٣٠٧-١٤٨٥م وجود ما لا يقل عن ثمانية وثمانون فرداً من اثنين وأربعين من عائلات النبلاء كانوا يدرسون فى الجامعات الانجليزية ، أثنيـــن وستين منهم فى أكسفورد ، وتسعة عشرة فى كمبريدج ، مما أضفى على الجامعة بعداً سياسياً واجتماعياً، وتخفيف بعض الأعباء التى ينوء بها كاهل أقرانهم من الدارسين الفقراء[١].

ومن جهة أخرى تعكس تبرعات الأساقفة الإنجليز دورهم الحاسم فى تطور الجامعة أكـــثر مـــن أى فئة أخرى فى المجتمع الإنجليزى ، بتأسيس الكليات لإعالة الدارسين الفقراء وتقاضـــى مخصصـــات مالية ، كما سبق الإشارة[٢] . وفى عام ١٢٨٨م تكفل أسقف هيرفورد Herford بـــنفقات دراســـة شابين فى أكسفورد بلغت فى أسبوعين ما يقرب من أربعة عشر جنـــيهاً . بيد أن التبرع بتأسيس كليات لم يكن قاصراً على رجال الكنيسة فقط، فهناك سيدات مـــن طبقة النبلاء ممثلين فى أرملتين على درجة من الثراء هما اليزابيث بورج الأبنة لأيرل كلارى وحفيدة الملك إدوارد الأول ، وصديقتها الحميمة مارى كونتية بيمبروك Pembroke الحفيدة الكبرى للملك هنرى الثالث[٣] .

وتحتل خزائن أو صناديق القروض Loan Chest مكانة بارزة فى مجال التبرعات للجامعـــات الانجلـــيزية . فقـــد قامـــت فكرتها على أساس تقديم قروض بدون فائدة للأساتذة والدارسين على السواء مقابل إيداع رهن مثل مخطوط ، الكتاب المقدس ، رداء ، كوب ، أو صـــليب ، كضمان للنقود المقدمة إذا لم تسدد فى غضون إثنى عشر شهراً . ويتم بيع الرهن فـــى حالـــة الإخفاق فى السداد، والأموال الباقية من بيع الرهن تعاد للمقترض الذى لم يستطع الســـداد ، وفـــى حالـــة وفاته تمنح لعامة الناس لصالح روحه . وفى الأيام الأولى من إنشاء خزائـــن القروض كان حق الاقتراض قاصراً فقط على الدارسين الذين لا يزيد دخلهم السنوى علـــى ماركين اثنين . بيد أن معظم المتقدمين بعد ذلك كانوا من الدارسين الذين لا يملكون أى إيـــرادات . ويعتبر إنشاء هذه الصناديق علامة بارزة للحد من نشاط اليهود الذين قبل إبعادهم

---

[١] Gobban, op. cit., pp. 295, 296; Mallet, op. cit., p. 141.

[٢] لمزيد من التفاصيل بصدد الدخل الذى يتقاضاه الدارسون المقيمين بكليات أكسفورد انظر :
Munimenta Academica, vol. I, pp. 55, 556; 655; Gobban, op. cit., p. 296.

[٣] يرجع أول ظهور لخزائن القروض فى عام ١٢٤٠م ، حين أمر روبرت جروستيت أسقف لنكولن بإيرادات جديدة للجامعة تقدر بمبلغ أثنان وخمسين شلن فى العام . وأن أى إضافات أخرى سوف تودع فى خزائن رئيس دير القديسة فريدزويد ، ووضع هذه الخزانة تحت رعاية رجل دين يعين بواسطة رئيس الدير وبموافقة المستشار ، واثنان من الرجال الثقاة الذين تنتخـــبهم الجامعـــة . وحددت القروض بمبلغ مارك واحد ، وثلاثين شلن ، وأربع بنسات للأستاذ ، ثمانية شلنات لطالب البكالوريوس ، وخمس شلنات للسفسطائى أى الذى أمضى عامين فقط من الدراسة فى الآداب . ويعتبر تأسيسها ضرورة ملحة آنذاك انظر :
Munimenta, Academica, vol. II, pp. 8, 10; Mallet, op. cit., p. 34.

مـن انجلـترا عام ١٢٩٠م يتقاضون فوائد باهظة على القروض المقدمة للدارسين الإنجليز . وكان مؤسس خزائن القروض من جموع شتى ، أثنان كانا رؤساء أساقفة كانتربرى ، وخمسة أسـاقفة ، وأثـنان مـن القساوسـة فـى حين تضم قائمة المتبرعين بتأسيسها من المؤسسين العلمانيين إليانور القشتالية Eleanor of Castile زوجة الملك إدوارد الأول توماس بيفورت Thomas Beaufort دوق إكسـتر Exeter ، إيـلا لونجسبى Ela Longespee كونتيسة ورسـيك Warmick ، وهـنرى لاسـى Henry of Lacy أيـرل لندن وغيرهم . بحيث استطاعت الجامعة فى غضون مائة عام من إنشاء أول صندوق لتقديم القروض عام ١٢٤٠م أن تتـباهى بالكثـير من الأموال التى تم وقفها للجامعة، والتى تقدم للمقترضين خدمة لا تقدر بثمن، واستحقت بالفعل أن تكون تخليداً لدافعيها[١] .

وهـناك تبرعات لدفع مرتبات للمحاضرين فى مدارس أكسفورد فى القرن الخامس عشـر ، مقدمة من أشقاء الملك هنرى الخامس (١٤١٣-١٤٢٢م) وهماجون دوق بيدفورد ، وهمفـرى دوق جوسيسـت Humphrey of Clouceste . وقام همفرى عام ١٤٣٦م بدفع مرتـبات محاضـرين فى الفنون الحرة والفلسفة بفروعها الثلاثة . بيد أنه فشل فى استمرارية توفـير الدخـل المطلوب لهم، وتوقف التبرع بوفاة الدوق . وفى السنوات الأخيرة من القرن الخـامس عشـر قامـت الليدى مرجريت كونتيسة ريتشموند Richmond وأم الملك هنرى السابع بمنح وقف مالى لمنصب أستاذ فى اللاهوت . أيضاً قدم الملك هنرى السابع منح مالى لدفـع مرتـبات أسـاتذة فى اللاهوت والقانون المدنى والطب واللغتين اليونانية والعبرية عام ١٥٤٢م[٢] .

واتخـذ التـبرع صـوراً أخرى مثل المساهمة فى تشييد أبنية للجامعة ، مثلما فعل تومـاس جوبهـام Thomas Gobham أسـقف وركسـتر Worcester بتمويل بناء دار اجـتماعات الجامعة فى أكسفورد، وفى عام ١٣٢٠ اعتزم وضع كتبه فى حجرة فوقها للعمل كمكتبة للجامعة[٣] .

وتحتل التبرعات مكان الصدارة فى تمويل بناء مدرسة اللاهوت فى أكسفورد ملحقاً بهـا مكتبة الدوق همفرى فوقها . واستغرق إتمام ذلك ما يقرب من خمس وستون عاماً حتى خرج إلى حيز الاستخدام عام ١٤٨٨م . ومن الجدير بالذكر أن أغلبية هؤلاء المتبرعين فعلوا ذلـك اسـتجابة لالتماسـات الجامعة طلباً للمال . وأخيراً جون راسل John Russell أسقف لنكولـن ، ومستشـار الجامعة والمحاضر السابق فى القانون الكنسى فى مدارس أكسفورد ،

---

١ Gobban, op. cit., p. 299; Mallet, op. cit., p. 34.

٢ Rashdall, op. cit., p. 163; Mallet, op. cit., p. 199; Gobban, op. cit., p. 303.

٣ Rashdall, op. cit., p. 164; Gobban, op. cit., p. 303.

يعتـــبر واحـــداً مـــن العديد من الأساقفة الذين تبرعوا لإعادة بناء مدارس القانون الكنسى فى أكسفورد فى الفترة بين ١٤٨٢ و ١٤٩٠م.[١]

وهكـــذا قدر للتبرعات أن تساهم بقسط كبير فى أن يكون للجامعة أبنيتها المستقلة . وبـــدون تحفـــظ نســـتطيع فى ضوء ما سبق أن نؤرخ وجود مبانى مستقلة للجامعة بدءاً من منتصـــف القـــرن الخامس عشر بعد أن كان التدريس يتم قبل ذلك فى أروقة الغرف الملحقة بالكنائس والأديرة حيث كانت كنيسة القديسة مارى مركز حياة الجامعة .

وأخـــيراً ، وختاماً لهذه الدراسة يتفق الباحث مع ما ذكره المؤرخون المحدثون بأنه بـــدون تلـــك التـــبرعات مـــن المنح الدائمة كان فشل التعليم الجامعى مؤكداً . بيد أن رسائل الدارســـين فى مدارس أكسفورد إلى زويهم كانت تئن دوماً بحاجتهم الماسة للمال، ناهيك عن الطـــلاب الفقـــراء الذين اضطروا للحصول على ترخيص من المستشار للإستجداء والتماس الصدقات التى لم تكن عيباً آنذاك.[٢]

---

[١] Gobban, op. cit., p. 304.

[٢] لمزيد من التفاصيل بصدد شكاوى الدارسين وحياتهم انظر :

Haskins, "The Life of Medieval Students as Illustrated by Their Letters" A.H.R., vol 3; January, 1898; pp. 203-229; Richardson, "Business Training in Medieval Oxford". A.H.R., vol. XLVI, January, 1941, pp. 259-270; Mallet; op. cit., p. 303;

هاسكنز ، نشأة الجامعات ، ترجمة : جوزيف نسيم يوسف ، ص ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ .

ثبت المصادر والمراجع

أولاً : المصادر الأجنبية :

- Annales Londonienses and Annales Paulini, The Chronicles of the Reigns of Edward I and Edward II, (ed.) William Stubbs, Rolles Series, London, 1965.
- Auctor Willeimo Cantuariensi, Vita S: Thomae, (ed.) Robertson, in Materials for the History of Thomas Becket, Vol. I, Rolles Series, London, 1965.
- Charter of Henry II to Oxford, A.D., 1155-1162, (ed.) W. Stubbs, Select Charters, Oxford, 1921.
- Chronica Roberti de Torigneio; (ed.) Richard Howlett, in the Chronicles of the Reigns of Stephen, Henry II and Richad I, Vol. IV, Rolles Series, London, 1964.
- The Chronicle of Bury St. Edmunds 1212-1301 (ed.) by Antonia Granseden, London, 1964.
- The Chronicle of Reigns of Edward I and Edward II, Vol. I (ed.) W. Stubbs, Rolles Series, London, 1881.
- Gervasii Cantuariensis Opera, Actus Pontificum (ed.) W. Stubbs, in the Historical Works of Gervase of Canterburi, Vol. II, Rolles Series, London, 1965.
- Giraldus Cambrensis, Opera, (ed.) Brewer, Vol. I, Rolles Series, London, 1861.
- Matthew Paris's, Chronica Majora, (ed.) Luard, Vol. IV., Rolles Series, London, 1884.
- Matthew Paris's, English History from the Year 1235 to 1273, Trans. From the Latin by Giles, Vol. III, London, 1852.
- Munimenta Academica; (ed.) Anstey, Vol. II, London, 1868.
- Richard of Devizes, De Rebus Gestis Richari Primi, in Chronicles of the Reigns of Stephen, Henry II and Richard I (ed.) R. Howlette, Vol. III, Rolles, Series, 1964.
- Roberti Grosseteste, Epistolae, (ed.) Luard, Rolles Series, London, 1861.
- Roger Wendover, Elores Historiarum, (ed.) H.G. Hewlett, 3 Vols., Rolles Series, London, 1886.
- Rolles Series, The Chronicles and Memorials of Grest Britain and Ireland during the Middle Ages, London, 1858.
- Royal and Other Historical Letters of the Reign of Henry III, (ed.) Shirly, Vol., I, 1216-1235, Rolles Series, 1862.
- Theobaldus Stampensis, Epistolae, *Patrologia Latina*, (ed.) Migne, Paris, 1854, CLX III, pp. 759-770.

ثانياً : المراجع الأجنبية :

- Brodrick, G.G., A History of the University of Oxford, London, 1984.
- Davis, H.W.G., England Under the Normans and Angevins 1066-1272, London, 1930.
- Gobban, A. B., "English University Benefactors in the Middle Ages", *History*, July, 2001, Vol. 86, pp. 287-312.
- Green, J.R., Ashort History of the English People, Vol. I., London, 1960.
- Green, J.R., "Oxford in the Middle Ages", English Historians Selected Passages, Oxford University Press, 1957, pp. 141-144.
- Hashins, G.H., "The Life of Medieval Students as Illustrated by Their Letters", *A.H.R.*, Vol. 3, January, 1989, pp. 203-229.
- Holland, T.E., "The Ancient Organisation of the University of Oxford"., *Macmllan's Magazine*, Vol. XXXVI, Cambridge, 1877, pp. 203-210.
- Knowles, D., The Evolution of Medieval Thought, London, 1970.
- Knowles, D., Thomas Becket, Stanford, 1970.
- Liebrmann, F., "Magister Vacarius", *E.H.R.*, April, 1896, pp. 305-314.
- Little, A.G., "The Franciscan School at Oxford in the Thirteenth Century", *Archivum Franciscanum Historicum*, Annus XIX, October, 1926, pp. 803-874.
- Lunt, W.E., A History of England, London, 1928.
- Lyte, H.C.M., A History of the University of Oxford: from the Earlest Times to the Year 1530, London, 1886.
- Mallet, G.E., A History of the University of Oxford, Vol. I The Mediaeval University and the Colleges Founded in the Middle Ages, London, 1968.
- Pegues, F., "Royal Support of Students in the Thirteenth Century", *Speculum*, January, 1956, pp. 454-462.
- Post, G., "Master's Salaries and Student-Fees in Mediaeval Universities", *Speculum*, Vol. 7, April, 1932, pp. 181-198.
- Rashdall, H., The Universites of Europe in the Middle Ages, Vol. III, Oxford, 1936.
- Richardson, H.G., "Business Training in Medieval Oxford", *A.H.R.*, Vol. XLVI, January, 1941, pp. 259-270.
- Russell, J.G., "Alexander Neckham in England"., *E.H.R.*, Vol. XLVIII, January, 1932, pp. 260-268.

- Stubbs, W., The Constitutional History of England, Vol. II, Oxford, 1873.
- Stubbs, W., Select Charters and Other Illustrations of English Constitutional History from the Earliest Times to the Reign of Edward the First, Oxford, 1921.
- Traill, H.D., Mann, J.S., Social England: from the Earliest Times to the Present Day, Vol. I, Oxford, 1965.
- Willson, D.H., A History of England, London, 1972.

ثالثاً : المراجع العربية والمعربة :

- ابراهـيم الجزيـرى ، مظاهر الحضارة في انجلترا الأنجلوسكسونية خلال عصر الملك الفريد العظيم ٨٧١-٨٩٩م . رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة طنطا ، كلية الآداب ، ٢٠٠١م .
- جوزيـف نسـيم يوسـف ، نشأة الجامعات فى العصور الوسطى ، الاسكندرية ، ١٩٨٤م .
- ديورانت (ويل) قصة الحضارة ، جـ٦ من المجلد الرابع ، ترجمة محمد بدران ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٦٥م .
- زينب عبد المجيد عبد القوى ، الإنجليز والحروب الصليبية فى الفترة من ١١٨٩-١٢٩١م ، عيـن للدراسـات والـبحوث الإنسانية والاجتماعية ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٦م .
- سعيد عبد الفتاح عاشور ، أوروبا العصور الوسطى ، جـ٢ ، النظم والحضارة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٨م .
- كانـتور (نورمان . ف) التاريخ الوسيط ، جـ٢ ، ترجمة قاسم عبده قاسم ، عين للدراسـات والـبحوث الإنسانية والاجتماعية ، الطبعة الخامسة ، القاهرة ٢٠٠٢م .
- موريـس كين ، حضارة أوروبا فى العصور الوسطى ، ترجمة قاسم عبده قاسم ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٩٤ .
- نظـير سعداوى ، تاريخ انجلترا وحضارتها فى العصور القديمة والوسطى ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٨م .
- ياسـر عبد المعبود ، جامعة باريس ودورها فى النهضة الفكرية بأوروبا ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة عين شمس ، كلية الآداب ، ٢٠٠٣م .